

روايات مصرية للجيب
أسطورة
بيت الأشباح
ما وراء الطبيعة
67
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

المقدمة

لـ (نجيب السمدونى) مزية مهمة هى أنه ممل ..

المملون فى كل مكان من حولنا ، والعثور على واحد ليس بأسهل من نظرة إلى مرآة الحمام أو فتح النافذة والنظر إلى الشارع ، لكن (نجيب) ممل إلى درجة مثيرة .. إلى درجة شائقة متجددة ..

هناك قصة حكاها (مارك توين) عندما ألقى خطابًا على جمهور متشكك فى أمريكا ، فألقى دعابة سخيفة .. وظل الناس يرمقونه فى بلادة .. من ثمّ كرر الدعابة ثانية بنفس الكلمات .. من جديد ظلوا يرمقونه بلا أى تعبير على الإطلاق .. كرر الدعابة السخيفة للمرة الثالثة والعرق يتفصّد منه ، فبدأت الضحكات تتعالى ، وفجأة انفجر الجالسون فى الضحك وتنفس الصعداء .. لقد قهرهم بغبائه ومله .. والغربيون يقولون : هذا سيئ لدرجة أنه ممتع ..

هكذا قضيت ألف ليلة فى حياتى مع (نجيب السمدونى) يتحفنى فيها بآرائه فى الحياة .. تلك الكليشيهات التى فقدت معناها من كثرة التكرار ، على غرار (الحياة كفاح) .. (الصديق وقت الضيق) .. (الطمع يقل ما جمع) .. (كل لبيب

بالإشارة يفهم) .. (النفوس صارت شريرة) .. وفى النهاية بدأت أشعر بأننى لا أكرهه إلى هذا الحد .. الرجل الذى يصر على أن يكون مملاً لهذه الدرجة ليس كريهًا أبدًا ..

فلما انصرفت عائدًا لدارى كنت راضيًا عن الحياة ، أشعر بتجدد الدم فى عروقى وبدأت أؤمن فعلاً أن (الحياة كفاح) وأن (الصديق وقت الضيق) وأن (الطمع يقل ما جمع) وأن (كل لبيب بالإشارة يفهم) .. دعك من أن (النفوس صارت شريرة) فعلاً ..

الآن أجلس فى دارى ، وأصمم على أن أمارس دورى فى جعل الحياة جحيمًا .. إن الغباء معد كما تعرفون ..

ما رأيكم فى قصة جديدة ؟

لن تكون قصة عن كتاب منسى يحاول بعض العلماء جمعه ، ولا عن قرية أمريكية يتحول أهلها إلى حشرات ، ولا عن أشياء تتحرك أو أشخاص يقدرون على ذلك .. لن أتحدث عن رقم مشئوم ولا ملك ذباب ولا مومياء لها حارس عصبى المزاج .. لقد بدأ تأثير (نجيب السمدونى) السحرى على ..

اليوم أتحدث عن موضوع مبتكر تمامًا لم يسبقنى أحد فى الكلام عنه ..

أتحدث عن بيت أشباح !

تمهيد

تعشق (رانية) شيئًا ما ..

حقًا لا أدرى ما هو .. أبوها لا يدرى ما هو .. أمها لا تدرى ما هو .. (رانية) لا تدرى ما هو ..

إنها تهيم به حبًا وكثيرًا ما تدمع عيناها وهى تفكر : لكم أتمنى لو صار لى .. لكن ما هو هذا الذى سيصير لها ؟ من جديد أكرر : أنا لا أدرى ما هو .. أبوها لا يدرى ما هو .. أمها لا تدرى ما هو .. (رانية) لا تدرى ما هو ..

إنه ذلك المزيج الغامض من رائحة السوسن .. رائحة مزيل العرق فى ثياب الشتاء الماضى .. تلك القطة الغنوج فى حديقة الجيران .. سحابة عابرة فى السماء .. صوت ذلك الطائر قرب الغروب .. لا تعرف إن كان الكروان أم لا لكنها تدعو الله أن يكون كذلك ..

العجيب أنه لا أثر للرجال فى هذا العشق .. ربما باستثناء أغنية هنا أو هناك لـ (عبد الحليم حافظ) أو (هانى شاكر) .. الشاب الأسمر الوسيم الذى ظهر لأول مرة فى ذلك العام واستطاع صوته أن يجد التردد المناسب لأوتار روحها ..

إن (رانية) تحلم .. لكنها لا تعرف بأى شىء تحلم ..

(رانية) تبكى .. لكنها لا تعرف علام تبكى ..

تعتقد أنها مخبولة أحيانًا ، ثم تعيد التفكير فتدرك أنها شاعرة .. تمسك بالقلم .. تنظر إلى زينة الربيع بالخارج وتقرر أن تكتب قصيدة جميلة جداً .. تحشد كلمات (العبير) و(النسيم) و(الفراش) و(الشجن) و(الهمس) كلها فى صفحة واحدة حتى تشعر أن الصفحة توشك على الاختناق من الرقة ، ثم تعيد قراءة ما كتبت فيبدو لها أقرب إلى الهذيان .. بل هو هذيان ...

تمزق الورقة وتضحك ..

أنت مراهقة يا فتاة .. هذا كل شىء .. رأسك أضيق مما يحتمل فيه من أفكار ، وقلبك أصغر مما يموج فيه من عواطف .. هذه النشوة كثيرة جداً على جسدك الهزيل ..

تقرر أنها لن تكون شاعرة .. سوف تصير مهندسة وسوف تصمم ناطحات سحاب يلتقط لها السياح الصور مع الكثير من الـ (واو والأوه والجاش) ، ثم تقرر أنها ستكون طبيبة وسوف تسافر إلى مجاهل أفريقيا لتعنى بالمرضى الراقدين يرتجفون من الحمى فى أكواخ من قش ، ولسوف يلثم المرضى ظلها عندما تمر جوارهم كما حكى لها د. (رفعت) صديق أبيها عن (فلورانس نايتنجيل Nightingale) .. سيدة المصباح

فى حرب القرم .. لا .. هى لن تتحمل بكاء الأطفال والدم .. سترحل إلى (فلورانسا) لتتعلم الرسم ...

ثم يأتى المساء فتقرر أنها ستكتفى بالعمل مع الفدائيين فى فلسطين .. سوف تنضم لهم وتجاهد .. ثم تموت جوار جدار وهى تلفظ اسم (فلسطين) بصوت راجف ..

هنا يغلبها التأثر والحزن على وفاتها المبكرة شابة جميلة رقيقة ينتثر شعرها الأسود على تراب الوطن .. فتبكى .. تمضغ الملاءة كى تكتم أناتها .. ولا تنسى قبل أن تنام أن تصير عالمة مثل مدام (كورى) وتكتشف أن الجدول الدورى كلام فارغ .. كل هذا خطأ .. مدرس الكيمياء يقف أمامها كاسف البال نادمًا يعتذر عن كل الساعات التى عذبها فيها من أجل جدول خطأ .. مديرة المدرسة تصافحها وتعلن أن المدرسة تشرف بأن تكون مدرسة (رانية) عالمة الكيمياء الحائزة على جائزة (نوبل) لهذا العلم ...

نومها يأتى بلا أحلام على الإطلاق .. والسبب واضح .. إنها تخرج كل المخزون فى عقلها الباطن وهى متيقظة ، هكذا عندما تنام لا يوجد أى شىء ليخرج ..

***

(رانية) مريضة ..

المـرء يحتـاج لوقـت طويـل كـى يعـرف أن المـرض مرض .. عندما يكتئب المراهق أو يصمت أو يبكى دون سبب فأنت تقول إن السبب هو أنه مراهق ..

لكن عندما يطول الأمر .. عندما تغزو تلك الهالات السود أسفل عينيها .. عندما يشحب جلدها ويرق .. عندما تمضى الليل ساهرة متكورة فى ركن الفراش فى وضع جنينى ، وهى ترمق العالم من فوق حافة الملاءة ، وعندما تغفو بضع لحظات ثم تصحو صارخة .. عندما يضىء (مختار) وزوجته النور ليجداها ترتجف كورقة ، بينما أخوها الصغير غارق فى النوم كالحجر .. طراز الأطفال الذين لو انتهى العالم فلن يصحوا أبدًا ..

عندما يحدث هذا كله يبدأ (مختار) فى التفكير .. بعد التفكير يأتى التأمل .. بعد التأمل يأتى الاستنتاج .. بعد الاستنتاج يأتى اليقين .. (رانية) مريضة !

احتاج المرور بهذه السلسلة المعقدة بضعة أشهر .. وفى النهاية احتاج لبضعة أشهر أخرى كى يقرر أنها بحاجة إلى مساعدة .. ثم بضعة أشهر كى يقرر أن له صديقًا طبيبًا هو أنا .. لا أدرى متى سيقرر أنها بحاجة لطبيب نفسى .. ربما توصل لهذا القرار العبقرى قبل أن تموت بالشيخوخة ..

هكذا وجدت نفسى فى تلك الليلة أجلس معها فى صالون بيتهم ..

يجب أن أقول إنهم أثرياء .. (مختار نجيب) محام من الرجال الذين لم يضيعوا مالهم فى الهراء والسفر للخارج لمقابلة الممسوخ على أرضها .. إنه يكسب كثيرًا ويحافظ على ما يكسبه .. كنت أود أن أصفه بالبخل لكن البخيل لا يبتاع فيلا بهذه الفخامة ..

لكن .. أنت تعرف (مختار) يا أخى ! هل نسيت ؟ ذلك المحامى الشرقاوى الصاخب الذى أرسلت (نجلاء) لتعمل عنده ؟ هل نسيت (نجلاء) ؟ التوءم التى .. ليكن .. أنا آسف .. انس الموضوع واعتبر أنك تقابله لأول مرة ..

الفيلا تقع فى شارع هادئ من شوارع المعادى .. فى أية لحظة تشعر بأنك سترى المغامرين الخمسة يتقدمهم (تختخ) على دراجاتهم بينما كلبهم يركض ملاحقًا .. هناك حدائق .. صمت .. بوابون نوبيون .. لا شىء يحدث على الإطلاق ..

الفيلا كانت ملكًا لشيخ عاش فيها وحيدًا ولم يتزوج قط .. كان من أعيان ما قبل الثورة ثم جاء التأميم ليسلبه الكثير ، لكنه احتفظ بمال يكفيه كى يقضى باقى أيامه فى سعة ، ويقال إنه كان غريب الأطوار وإن أحدًا لا يعرف عنه الكثير .. فقط

بعد ما مات ظهر وريث كان يقيم بالخارج من مكان ما وباع الفيلا لـ (مختار) .. الحقيقة أنه قصده كمحام ليعرف ما له وما عليه فاقتنص (مختار) هذه الفرصة وأقنعه بأن يبتاعها منه . كان السعر رخيصًا نسبيًا بالنسبة لفيلا بهذه المواصفات ، والوريث على كل حال كان راغبًا فى التخلص من كل شىء ليعود إلى الخارج .. هكذا سقطت الثمرة ناضجة في يد (مختار) الأريب .. فلم يمض أسبوع حتى كان قد نقل كل منقولاته من بيته القديم فى (إمبابه) ، وبالطبع احتاجت الفيلا إلى إضافات لا بأس بها ..

كل الفيلات تتشابه على كل حال .. تشق طريقك عبر ممر مرصوف بالحجارة بين صفين من الأشجار ، وأحواض مليئة بزهرة (الدالكونيا) التى لا وجود لها لكنى أسمى بها كل أزهار لا أعرف كنهها .. هناك أرجوحة معلقة فلا تنس أن هناك طفلاً فى الدار .. دعك من أنها تمنح أحلام الرومانسية لـ (رانية) حين تتأرجح عليها وتتخيل أنها سندريلا .. هناك عامود نور أو اثنان على شكل فانوس عملاق .. هناك منضدة من اللدائن تناثرت فوقها بضع مجلات أطفال ، وقد تم وضع قطعة حجر عليها كى لا تقذفها الرياح .. حول المنضدة بضعة مقاعد .. لكن هناك حمام سباحة صغيرًا من الطراز الذى يغرق فيه أطفال

الأسرة ويموتون ، أو تطفو فوقه جثة امرأة متعفنة لتطبق على كاحلك .. تعرفون هذه الحمامات طبعًا .. دعك من الكلب المسعور المفترس المتوحش بشع الخلقة سيئ الطباع الذى ربطوه إلى حبل يتحرك على حبل آخر معلق بالعرض ، بحيث لا يستطيع البائس إلا الجرى فى خط طولى أبدى .. فإذا حاول أن يتحرك فى خط عرضى شنق نفسه أو تعثر وسقط للوراء .

هذا الكلب ابتاعه (مختار) من كلية الشرطة ، وهو فخور به جدًا .. كانت لى قصص ممتازة مع هذا الكلب خاصة فى المرة التى رحت أغيظه فيها ثم اتضح أنه غير مربوط لأى شىء على الإطلاق ..

لكن هذا ليس مجال الذكريات العامة طبعًا ..

لنصغ إلى (رانيا) الصغيرة الجالسة فى منامة حريرية وقد تربعت على مقعد الصالون ..

ـ « ما المشكلة يا (رانية) ؟ »

هزت رأسها سلبًا .. ورفعت رأسى فوجدت (مختار) واقفًا كالديدبان من وراء الستار كأنه لا يريد أن يفوت حرفًا مما يقال .. كأن الأحمق يظنها لن تصاب بالهلع بهذه الطريقة .. أنا نفسى نسيت من أنا وهو يرمقنى بهذه النظرة النارية .. أشرت له من طرف خفى أن يبتعد ثم عدت أسألها ..

ـ « ما المشكلة يا (راتية) ؟ »

ـ « لا مشكلة .. »

عدت أسألها .. ماذا بوسعى أن أفعل بعد هذا كله ؟ .

قلت لها وأنا أقاوم رغبتى فى أن أمسكها من قدميها وأطوح بها لأهشم رأسها فى الجدار :

ـ « اسمعى يا (راتية) .. أنا لم آت هنا للتسلية عليك .. كلنا يعتقد أن هناك مشكلة ومشكلة خطيرة .. والمشاكل الخطيرة تشبه تلك النظرة القديمة للطاعون : ما لم تنقليه لشخص آخر فسوف يقتلك .. هكذا كانوا ينظرون إلى الطاعون فى القرون الوسطى .. »

كان فى رأسى ألف سؤال ، لكنى كنت أقدر أن (رامى) هو السبب فى النهاية .. من (رامى) ؟ هناك واحد دائمًا .. ابن الجيران أو زميل المدرسة لو كانت مشتركة .. هذا الفتى الرقيع الذى يقضى وقته فى كتابة الخطابات المعطرة ويقذفها إلى الشرفة ، والنتيجة هى لن أهله وأهلها يحترقون وينفقون المال ، بينما الوغدان الصغيران غائبان فى عوالم الرومانسية و(قالت كحلت الجفون بالوسن) ..

(رامى) هو السبب وسوف أنسفه نسفًا ، فقط لو انتهت مقاومتها وأخبرتنى أن هذا هو التفسير فعلاً ..

قلت لها :

ـ « سأسأل السؤال للمرة الأخيرة بعد هذا سأرحل .. لن يكون بوسعى مساعدتك ثانية .. صدقينى أنا لا أعرض صداقتى على أحد ولا أرحب بمعرفة شخص جديد ، لهذا عرضى ثمين لن تعرفى قيمته إلا حينما يخبرك أبوك من هو (رفعت إسماعيل) .. (رفعت إسماعيل) آخر الذئاب المتوحدة .. (رفعت) الذى لو كان فى عصور الجاهلية لعاش فى واد مع الغيلان والجان ، ولرأته القوافل من بعيد يمشى حاملاً هراوة ثقيلة مدثرًا بفراء أسد .. »

صمتت قليلاً تحاول استيعاب ما قلت ، ويبدو أن الصورة راقت لها لأن شبح ابتسامة تلاعب على ثغرها ..

كانت سمراء نحيلة جديدة هشة جدًا ، فلو أخبرنى أحدهم أنها ستموت بعد دقائق لوافقته على الفور .. لكن بسمتها جعلت المكان يضىء بالمعنى الحرفى للكلمة ..

قالت لى :

ـ « هناك أشياء .. »

ـ « ومنذ متى لم يكن ذلك ؟ هناك (نيفين) الفتاة السمجة المدللة لدى المعلمة والتى تتسلى عليك وتتحرش بك .. »

- « لا توجد (نيفين) عندنا فى الصف .. »

- « غريب .. هناك (نيفين) أو (سحر) دائمًا .. لكن .. هناك تلك المشاكل المتعلقة بـ (رامى) .. إن (رامى) ليس جادًا .. ربما يبدو كذلك .. لكن أى مراهق يعرف كيف يبدو صادقًا عندما يرفع حاجبيه ويسبل عينيه و ... »

صاحت وهى تضرب كفًا بكف :

- « د. (رفعت) .. لا أفهم أى حرف عما تتكلم عنه .. من (رامى) ؟ ومن(نيفين) ؟ »

قلت لها فى دهشة :

- « إذن ما سبب مشاكلك ؟ »

قالت وهى تأخذ نفسًا عميقًا :

- « هناك أشباح فى هذه الفيلا ! »

* * *

الجزء الأول

هواجس مراهقة

- « تحريك الأثاث والدق وهز الفراش .. هذه هى أفعال الأشباح الصاخبة .. ومن الغريب أن هناك كلامًا عن هذه الأمور فى المخطوطات الفرعونية .. يقولون إن هناك ظاهرة تدعى (ظاهرة الغضب المسجل) حيث يسبب موت شخص فى ظروف صاخبة عنيفة تجمعًا هائلاً للطاقة فى مكان ما .. ويتكررتفجر هذه الطاقة كأنك تعيد تدوير شريط التسجيل عدة مرات .. يتكرر إلى أن تنتهى هذه الطاقة فتزول الظاهرة .. »

-١-

تعال يا (مختار) واجلس .. فى الحقيقة أنا أقدر قلقك بسبب هذه الطريقة الدرامية التى طلبتك بها ، لكنى كنت حريصًا على ألا أفقد ثقة (رانية) التى أحاطتنى بها .. لقد كففت عن أكون (عمو) لأصير صديقها ، لهذا من الخسارة أن أبدد هذا ..

لأسباب كهذه غادرت البيت من دون أن أتبادل كلمة معك ، ثم اتصلت بك عندما وصلت إلى منزلى كى أستدعيك .. أريد أن نتكلم على انفراد وهمسًا .. أرجوك أن يكون همسًا .. أنا لا أطيق الصراخ وأنت تفترض أن كل الناس مصابون بالصمم والعته ..

* * *

(رانية) فى فترة مراهقة ..

أسمعك تتساءل عن أى شيء جديد جئت به .. أريد أن أقول إن مشكلتها الحالية تنبع من هذا العالم المضطرب الذى تسببه المراهقة فى النفس .. فى الغرب يعتقدون أن هذه هى السن المثلى للاستحواذ .. بينما يرى كثيرون إنها السن التى تظهر فيها القدرات الخارقة .. حسن .. فى هذه السن يمكن أن ترى الفتاة رؤى ...

لا أعرف من أين تعلمت (رانية) هذه اللعبة التى يمارسها أطفال الغرب ، لكن ربما قرأت عنها .. إن التليفزيون يعرض كل شيء هذه الأيام ..

إن (مارى) ملكة إنجلترا الرهيبة هى التى بدأت كل شيء .. هذه الملكة كانت شرسة قاسية وقد اشتهر عصرها بالمذابح الدينية .. لم تنجب هذه المرأة لحسن حظ التسامح الدينى .. أجهضت عدة مرات ، ويبدو أن هذا ساعد فى اشتعال طبعها الشيطانى .

فى النهاية ماتت كمفاجأة سارة للشعب الإنجليزى ، لكن الأطفال خلدوها بعبارة (مارى الدموية) .. وكانت اللعبة الشهيرة تقضى بأن يقف الطفل أمام مرآة فى الظلام وينادى اسمها ثلاث مرات.. أحيانًا كانوا يزيدون اللعبة إثارة بأن يقول :

ـ « يا (مارى الدموية) .. أنا قتلت أطفالك ! »

طبعًا تحمل هذه العبارة الكثير من الاستفزاز للمرأة التى لم تستطع أن تحتفظ بحمل واحد .. المفترض حسب الأسطورة أن يراها الطفل واقفة وراءه فى المرآة ! .. فيما بعد سوف يقتبس كاتب الرعب (كليف باركر Clive Barker) ذات الفكرة ليقدم فيلم رعب شهيرًا اسمه (رجل الحلوى Candy man) الذى

لا ينبغى أن تنادى اسمه ثلاث مرات أمام المرآة لأنه يأتى دائمًا ..

حسن .. (رانية) لم تفعل هذا بالضبط ..

لقد نفذت الجزء الآخر من اللعبة التى بالتأكيد أخبرها بها أصدقاؤها ..

فى هذه الطريقة تقف فى الظلام عند أسفل الدرج وتحمل فى يدها اليمنى مرآة وفى اليسرى شمعة .. ثم تتراجع صاعدة الدرج بظهرها وهى تنظر فى المرآة .. طبعًا هذه طريقة مثلى لكى تقع ويدق عنقها .. فإن لم يدق فعلى الأقل لا بد أن تحدث حريقًا مروعًا .. فإن نجت من هذا صارت تستحق أن ترى ما ستراه ...

فى لحظة بعينها ترى فى المرآة وجه عريس المستقبل ! زوجها القادم يقف خلفها وينعكس وجهه فى المرآة ..

هذه أساليب لم يتعامل معها أحد بجدية قط .. إنها ألعاب أطفال فى النهاية ..

لكن (رانية) جربت هذا .. غالبًا على سبيل الفضول وربما مدفوعة بكلام البنات المعتاد عن فارس الأحلام الذى سيأتى يومًا ما على حصان أبيض ..

فكرة مرعبة لا تمارسها إلا فتاة غارقة فى الرومانسية مثل ابنتك .. لم أكف قط عن اعتبار الرومانسية والرعب وجهين لذات العملة ، ولست الأحمق الوحيد .. أليس الرعب القوطى ضربًا من الأدب الرومانسى ؟ ألم يكن أعظم كاتب رعب - إدجار آلان بو - شاعرًا بالغ الرقة ؟

بالنسبة لغير الرومانسيين من أمثالنا يبدو هذا مزيجًا من الخبال والشجاعة الزائدة ..

ما فعلته هو أنها انتظرت حتى نامت الأسرة كلها .. ثم هبطت إلى الطابق الأسفل للفيلا ..

كانت الردهة مظلمة ، لذا اتجهت إلى أسفل الدرج وأشعلت شمعة بيد راجفة .. لا بد أن عود الثقاب انطفأ عدة مرات فأشعلته من جديد ، ثم أدارت ظهرها للدرج وبدأت تصعد .. تصعد .. عينها على المرآة الصغيرة التى تشبه الصولجان والتى كتب على إطارها :

(ما من أحد كامل Nobody's perfect)

لا بد أن المشهد كان مرعبًا .. بقعة من النور تتحرك لأعلى وظلالها تتراقص عملاقة على السقف والجدران ..

والمرآة لا تعكس إلا الظلام الرهيب خلفها ، ووجهها الذى جعلته إضاءة الشمعة القادمة من أسفل مخيفًا ..

تصعد .. تصعد ..

إنها تقترب من أعلى الدرج محاذرة من أن تسقط ..

فجأة رأت وجهًا فى المرآة...

لم يكن وجهًا جميلاً على الإطلاق .. فى ضوء الشمعة المتراقصة يمكن أن نتصور ما شعرت به..

كان وجهًا مشوهًا منتفخًا امتلأ ببقع زرق وخضر (أو هذا ما قالته لأن ضوء الشمعة زيف الألوان كلها) .. كأنه وجه جثة متعفنة غطتها الفطريات .. بالتأكيد لم يكن أجمل عريس تحلم به فتاة شابة ..

أجفلت وأطلقت صرخة ..

ثم نظرت إلى الخلف فلم تر أحدًا ..

بصعوبة استطاعت ألا تسقط لتهشم عنقها ، وسرعان ما كانت تركض متواثبة فوق الدرجات ..

انطفأت الشمعة فمن حسن حظها أن هناك إضاءة خافتة من الطابق الثانى حيث تغفو الأسرة ..

اندفعت لحجرة نومها ووثبت فى الفراش المجاور لأخيها .. أخيها الذى لو انشقت الأرض لتلفظ كل شياطين سقر فلن يصحو .. وللمرة الأولى شعرت بأنها سعيدة لنومه الثقيل هذا .. شىء من عالم الواقع .. شىء طبيعى يبعدها عما رأت ..

سرعان ما كانت تحت الأغطية ترتجف ..

لا داعى لأن أحكى لك عن عشرات التفاصيل الصغيرة التى لا يمكن أن ينساها أى مخرج رعب يجيد عمله .. نظرات الدمى الوقحة الموضوعة على المكتب أمامها .. صرير الباب .. الشىء الذى يتحرك فى المرآة .. بقعة النور على وجه أخيها التى توحى بأنه ينظر لها فى ثبات مع أن عينيه مغمضتان .. هذا كلام مكرر يوشك أن يصير مملاً..

الخلاصة أنها كانت أسود ليلة فى حياتها ..

لكن ضوء النهار يغسل هذه القاذورات ..

لقد انتهى الكابوس ، لكنها كانت تعرف يقينًا أنها لن تجرب هذا ثانية ..

تمارضت فى الصباح فلم تذهب للمدرسة ، والسبب هو أنها لم تنم لحظة واحدة طيلة الليل .. وقضت اليوم تتذكر التجربة التى عاشتها ليلاً ...

هذا هو الجزء الأول من القصة ..

نعم يا (مختار) .. القصة لم تنته عند هذا الحد وإلا لكانت الحياة رائعة ..

فقط اصبر قليلاً وكف عن الصراخ من فضلك ..

★ ★ ★

ـ ٢ ـ

كان (مختار) من الذين لا يشعرون بأنهم فى مكان مريح إلا إذا نزعوا أحذيتهم وتربعوا على مقاعدهم فى وضع أقرب إلى وضع اللوتس الخاص ببوذا ، وقد قال لى فى عصبية وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « حسن .. هذه هواجس مراهقة كما تعرف .. لا بد أن الظلام وضوء الشمعة يثيران الخيال .. لو مررت أنا نفسى بهذه التجربة لرأيت وجه مأمور الضرائب فى المرآة أو ما هو أسوأ .. »

قلت وأنا أفتح التليفزيون فى الصالة :

ـ « بعد هذا حدث أن رأت هذا الوجه مرتين فى مرآتها .. كان يقف وراءها ويضحك تلك الضحكة المنذرة بالويل .. ثم بدأت الأشياء تتحرك فى غرفتها »

ـ « أشياء ؟ »

ـ « نعم .. الدمى تتخل تحت الفراش .. المقعد يغير مكانه .. الأقلام تسقط إلى الأرض .. أصوات الطرقات فى الغرفة ليلاً تلك التى يطلقون عليها rappings .. السيناريو المعتاد .. »

اتسعت عيناه ونفث الدخان كثيفًا من منخريه ، وهز رأسه بمعنى : أكمل ..

قلت وأنا أغلق التليفزيون من جديد لأن البرامج مملة :

ـ « هذه القصص كثيرة جدًا ومدونة فى أكثر من مكان .. فيما مضى قيل إنها تأثير الأشباح الصاخبة (بولترجايشت poltergeist) ثم قرر العلماء بعد ملاحظة دقيقة أنها قوى تحريك عن بعد لا إرادية(*) RSPK .. الفتاة ترى الأشياء تتحرك لكنها لا تعرف أنها من يفعل هذا .. لو قرأت هذه القصص لخيل إليك أن كل فتاة مراهقة تتحرك الأشياء فى غرفتها .. »

ـ « وما المانع أن تكون هذه حالة (رانية) ؟ »

ـ « كل أولئك المراهقات لم يرين وجهًا مخيفًا فى المرايا .. إن وضع ابنتك فريد جدًا ولك أن تشعر بالفخر .. »

استرخى فى مقعده ومد يده يفك ربطة عنقه ، ثم سألنى :

ـ « ما هذا الشبح الصاخب الذى تتكلم عنه ؟ »

حككت صلعتى الملساء وقلت له :

(*) Recurrent Spontaneous Psychokinesis .. (RSPK)
أى التحريك النفسى المتكرر التلقائى

ـ « تحريك الأثاث والدق وهز الفراش .. هذه هى أفعال الأشباح الصاخبة .. ومن الغريب أن هناك كلامًا عن هذه الأمور فى المخطوطات الفرعونية .. يقولون إن هناك ظاهرة تدعى (الغضب المسجل) حيث يسبب موت شخص فى ظروف صاخبة عنيفة تجمعًا هائلاً للطاقة فى مكان ما .. ويتكرر تفجر هذه الطاقة كأنك تعيد تدوير شريط التسجيل عدة مرات .. يتكرر إلى أن تنتهى هذه الطاقة فتزول الظاهرة .. »

رفع يده محتجًا وهتف :

ـ « لكن هذا كلام عائم لا رأس له ولا ذيل .. بكم أبيع هذه الكلمات ومن أى مصرف أستبدلها ؟ »

قلت فى خجل :

ـ « هذا حق .. وهذه مشكلة علم (الباراسيكولوجى) العتيدة برغم كل الجهود الصادقة لـ (جوزيف بانكس راين Rhine) ومن معه .. لا يمكنك الإمساك بحقائق .. »

ـ « وماذا أفعل أنا مع (رانية) ؟ لا تقل لى أن أنتظر حتى تنتهى هذه الطاقة .. »

قلت وأنا اتجه إلى المطبخ لإعداد بعض الشاى :

- « ابنتك ترى أشباحًا .. خذها إلى طبيب نفسى يسعد الجميع .. »

* * *

ولم اكن أمينًا تمامًا فى سرد القصة لـ (مختار)..

الفتاة رأت وجهًا مشوهًا أقرب إلى وجه ميت .. وقواعد اللعبة الغريبة هى أن الفتاة ترى وجه زوجها القادم فى المرآة .. فإن لم تره ورأت وجهًا ميتًا أو رأت الشكل المصطلح عليه للموت (جمجمة - عباءة - منجل) فإن هذا يدل على أنها لن تظفر بزوج ..

بصراحة أكبر : ستموت قبل أن تتزوج ..

* * *

بعد زيارة د. (محمد إبراهيم) لم يبد أن الأمور تتحسن .. هو لم يقل شيئًا بل اكتفى بأن يخط على ورقة بعض المهدئات ومضادات الاكتئاب .. سألته عما تعانيه بالضبط فقال شيئًا ما أقرب إلى :

- « مممممننننممممهممم »

وهو مرض جديد بالنسبة لى ، لكنى بما أعرفه عن الأطباء أدرك أنه يفكر فى ذات اللحظة ، فهو لم يقرر شيئًا

بعد ، عندها تسأله أنت فيكتفى بأن يزوم كأنه أسد يرى قطعة لحم .. فى النهاية قال لى بصوت واضح :

- « (ملانخوليا) .. وساوس .. الكثير من هذه الأشياء . »

- « وهذا الشبح الذى رأته ؟ »

- « (ملانخوليا) .. وساوس .. الكثير من هذه الأشياء . »

الفتاة قلقة متوترة وهى لا تكف عن إخبارى بأن كل شىء يتحرك ..

قلت لها وأنا أضغط على أعصابى :

- « (رانية) .. لا أريد أن أقسو عليك لكن ألا ترين نوعًا من الغرابة فى كونك الوحيدة التى ترى هذه الأشياء ؟ لو كانت هذه ظاهرة لتكلمنا فى الأمر .. »

كنا جالسين فى حديقة الفيلا والشمس تغمر كل شىء .. تذيب فكرة الأشباح والمخاوف نفسها .. الآن أشعر بأن هذا كله سخف وبعيد جدًا .. والكلب يغفو قريبًا منا بعد ما يأس من قطع رقبتى .. إنه لا يستطيع النيل منى لسوء حظه لكنى لا أريد التفكير فيما سيفعله لو تحرر من قيده مرة أخرى ..

قلت لـ (رانية) وأنا أشير لهذا الأحمق النائم :

ـ « صدقينى إن لى خبرة لا بـأس بها فى هذه الأمـور .. هذه الحيوانات تملك حواسًا لا نملكها ، وترى وتسمع ما لا نراه ولا نسمعه .. لو كان هنـاك شـىء مريب واحد فى هذه الفيلا لكان يقف منتصبًا ، وقد انتفش الشعر حـول رقبته ، ولزام بصوت مفزع .. عرفت امرأة لم تكن تنام ليلا إلا عندما تتأكد من أن القط نائم جوارها فى سلام .. كان هذا يعنى لها أن الليلة ستمر على خير .. »

رفعت عينيها ونظرت فى أمل إلى الكلب النائم .. كيف لم يخطر لها هذا من قبـل ؟ .وبدأت نظرة اطمئنـان تستقر على ملامحها ..

هنا ـ كأنه يريد أن يغيظنى ـ رفع الوغد رأسـه وانتصب .. ثم انتفش الشعر حول عنقه وبدأ يزوم ..

★ ★ ★

ـ ٢ ـ

كان المقعد البلاستيكى يتحرك ..

أعرف هذا وأثق به .. لـم أبلـغ بعد درجـة أن تخدعنـى حواسى .. أنا واثق مما أقول ..

المقعد البلاستيكى الذى لا يجلـس عليـه أحـد يتحـرك بخطوات بطيئـة دقيقـة فـوق أرضيـة الحديقـة المكسـوة بالملاط .. نظرت إلى (راتية) فوجدتها لا تنظر إلى المقعد على الإطلاق .. كانت عيناها على الكلب المتوتر الذى وقف فى وضع قتالى ممتاز وهو يزوم مهددًا .. خائفًا ..

تحرك المقعد بضعة سنتيمترات ثم توقف ..

نظرت من جديد إلـى (راتيـة) فرأيتهـا تنظر لـى وهـى تبتسم ابتسامة تشفٍ خافتة .. هل رأيت أيها الأحمق ؟

قلت وأنا أنهض :

ـ « لقد تحرك المقعد !! »

قالت دون أن تبدل من وضعها :

ـ « قل لى منذ متى كفت المقاعد عن الحركة فى هذا البيت ؟ »

- « إنه حدث تافه ، لكنه أول شىء يتم أمام شهود على قدر علمى .. »

قالت فى برود :

- « لا أبالى بالشهود .. أنا لا أخرف وأعرف هذا جيدًا .. »

قلت فى عصبية وأنا أمسك بالمقعد الذى كان يتحرك كأنما أخشى أن يكون مربوطًا بخيط ما :

- « هذا ليس فعل أشباح .. إنها طاقة (سايكوكينيزيس) .. أنت تحركين هذه الأشياء عن بعد دون أن تدركى هذا .. »

- « ليت هذا صحيح .. »

نظرت إلى الكلب فوجدته قد أقعى على الأرض وهو يصدر نباحًا من ذلك الطراز الخفيض الرفيع الذى يفتت الأفئدة .. فقالت (رانية) :

- « كنت تتكلم عن الكلب الذى لا ينتفش الشعر حول عنقه ولا يزوم بشكل مفزع .. »

كانت تغيظنى .. لذا ضغطت على أعصابى وقلت :

- « هذا لا يعنى أنه رأى شبحًا .. أى كلب فى العالم يرى مقعدًا يتحرك من تلقاء نفسه لا بد أن يزوم ويهتاج .. »

ثم جلست جوارها وقلت :

- « (رانية) .. أنا لا أعنى أننى لم أر أشياء غريبة .. أحسب أننى رأيت كل شىء مفزع أو مريب فى العالم ولعل هذه نعمة أو نقمة ، لكنى فى حالتك هذه لا أشعر أن ما رأيناه كاف .. ما زلت أضع الوساوس فى المرتبة الأولى .. »

- « والمقاعد التى تتحرك ؟ هل هى وساوس »

أصابنى الغيظ .. بالفعل هى محقة .. قلت وأنا أنظر إلى المقعد :

- « إذن سأضع التحريك عن بعد فى المرتبة الأولى .. ثم أضع الوساوس فى المرتبة الثانية .. أما الأشباح سأضعها فى آخر القائمة .. »

نظرت لى بعينيها الساحرتين وسألتنى :

- « هل رأيت بيوتًا مسكونة من قبل ؟ »

- « رأيت الكثير منها .. وزرت مسكن القس (بورلى) Borley Rectory فى إنجلترا .. ذلك البيت الذى يقولون إنه أكثر البيوت سكنى بالأشباح فى العالم وفى التاريخ .. عامة تكون القصة متكررة .. خطوات فى الليل .. ضحكات أبواب تفتح وتغلق .. كلام يقال فى الردهات .. دقات

من الجدران .. فى النهاية يتضح أن هناك جثة مدفونة فى جدار ما .. يقال إن الروح تظل قلقة إلى أن يؤخذ بثأرها أو تدفن الجثة بشكل لائق بعدها تهدأ الأمور .. »

ـ « ولماذا لا تفترض أن هذه الفيلا مسكونة ؟ »

صحت وقد صعد الدم إلى رأسى :

ـ « لأن الشاهد الوحيد هو أنت .. وأنت مراهقة حمقاء امتلأ رأسك بالخيالات .. لو رأى أبوك شيئًا كهذا لصار الأمر مفروغًا منه »

ـ « أنت رأيت المقعد معى .. »

ـ « ربما أنا عجوز مخرف .. كارثة الكوارث أن يجتمع شيخ مخرف واهن الحواس ومراهقة خيالية ويتكلما عن مقعد يتحرك .. »

ثم نظرت فى ساعتى وقلت لها إننى راحل .. فلتقرئ أباها السلام ..

ـ « إلى أين ؟ »

تذكرت بيت شعر (حافظ إبراهيم) الشهير :

ثقلت عليك مئونتى ∴ إنى أراها واهية

فابشر فإنى ذاهب ∴ متوجه فى داهية

الذى كتبه لعمه القاسى وهو يهرب من بيته فى مراهقته ..

بليغ جدًا يا شاعر النيل .. هذا البيت يصف حالى بدقة بالغة .. لكنى قلت لها :

ـ « كما هى العادة .. سوف أحتسى القهوة فى كافتيريا ما ، ثم أعود لدارى .. وعلى الأرجح لن أمر عليك لمدة أسبوع ، لكن عدينى بأن تواظبى على علاج د. (محمد إبراهيم) .. »

ـ « أمى تتأكد من ذلك .. »

هنا ظهرت الأم .. المرأة الريفية الباسلة التى شقت الطريق وراء زوجها حتى بلغ هذه المكانة .. رحلة العمر أضافت لها بدانة توشك أن تسبب لها نوعًا من الإعاقة فهى تمشى بصعوبة وتجلس بصعوبة وتلهث طيلة الوقت محمرة الوجه .. هذه هى متلازمة (بيكويك) التى يعرفها أطباء الأمراض الصدرية والتى تُنسب إلى بطل قصة (ديكنز) الشهيرة (أوراق بكويك) .. لكنك لن تخبر امرأة أنها تشبه مستر (بكويك) طبعًا حتى لو لم تكن قد سمعت عنه ..

سألتنى وهى تحمل صحفة عليها كوب به مياه غازية :

ـ « خيرًا يا دكتور ؟ هييه ؟ كيف حال (رونى) ؟ »

(رونى) ؟ لا أعتقد أن هذا اسم الكلب .. إذن هو اسم تدليل الفتاة ..

أفرغت الكوب فى جوفى ثم قلت وأنا أنصرف :

ـ « بخير .. بخير .. ما دامت لا ترى المقاعد البلاستيكية تتحرك فهى بخير .. »

★ ★ ★

ـ ٤ ـ

فى ذلك العام كان (سليمان الخولى) قد بلغ نهاية مخزونه من الصبر والتحمل ..

تراه الآن يجلس فى تلك الكافتيريا ينظر بعين زائغة لا ترى شيئًا إلى العالم من حوله .. يمر به النادل يسأله عما إذا كان يرغب فى شرب شىء آخر ، فيهز رأسه ويقول كلمات لا معنى لها يستنتج منها النادل أنه يعنى (قهوة) .. ما دام هناك هاء وواو فلا بد أن يقصد القهوة لأن الهواء لا يقدم فى الكافتيريا ..

أغنية جميلة يحبها تتسرب فى الجو ، لكنه لا يعى حرفًا ولا يفهم أنها هى ..

(سليمان) يرمق الشارع فى ذهول عبر الزجاج .. الناس يمشون حاملين وجوههم ذاهبين هنا وهناك .. كل منهم لديه فرصة ما فلماذا لم يبق له شىء ؟

وينظر إلى المنضدة .. حيث تستقر الدبلة المربوطة بخيط فوق الشرشف .. ينظر حوله ثم يمد يده ويطبق عليها .. لا بد أنها تحمل رائحتها .. لا بد أنها ما زالت ساخنة ..

ينظر عبر الزجاج وقد بدأ الليل يحل فيرى منظرًا مركبًا من الظلمة بالخارج وأضواء الداخل .. ذلك المزيج العجيب من النافذة والمرآة معًا .. يرى وجهه النحيل الهضيم وشاربه الرفيع وعويناته وشعره العالى المنكوش الذى كان يذكر من يراه بالعبقرى (على مصطفى مشرفة) .. (مشرفة) الذى اعترف (أينشتاين) نفسه بأنه واحد من الخمسة الذين فهموا نظرية النسبية فعلاً ..

مزج غريب فى زجاج النافذة لسلويت وجهه على صورة الشارع .. يتذكر الآن أنهم كانوا يقومون بالمزج فى أفلام السينما القديمة بوساطة هذه الطريقة البسيطة توفيرًا لنفقات المختبر .. وجهه ينطبع على الحياة .. على الآخرين ..

★ ★ ★

(ريما) كانت هنا وقد رحلت ..

هذه المرة لم تكن على استعداد لسماع أعذار عن الشقة التى يوشك على الظفر بها .. عن وظيفة الجامعة التى سيفوز بها .. عن .. وعن ..

كانت صارمة عملية قاسية جدًا .. لقد أخبرته أختها يومًا ما عن أساليب البنات فى التخلص من خطيب لم يعد يهمهن .. الرسالة البليغة التى تتمثل فى دبلة معلقة كالعقد فى العنق لحظة اللقاء .. يراها فيعرف أنه لم يعد هناك ..

جلست (ريما) لتقول إنها جاءت فقط كى تترك له الدبلة .. تنزعها عن عنقها وتضعها على المنضدة .. أنت لا تكف عن بذل الوعود .. لا تكف عن النجاح فى الخيال .. الآن أعرف أين أنا وأين أنت وأعرف أننى لن أستمر ..

وتبتسم فى قسوة ..

ما أسعدهن حين يجلسن فى مقاعد الحكام يرفضن هذا ويقبلن هذا .. هذا خجول نوعًا .. هذا يحترم أمه أكثر من اللازم .. هذا ينظر أحيانًا إلى اليسار .. قرأت فى مجلة (حواء) أن هذا دليل على ضعف الشخصية .. هذا يفرك أنفه كثيرًا مما يعنى أنه كذوب .. ارفضى .. ارفضى .. ارفضى .. ما أسعدك يا ملكة الملكات ..

يسألها عما تشربه ..

ـ « شكرًا .. منذ عرفتك وأنا أشرب ! »

ثم تضحك فى مرارة وتنهض .

ـ « بعد إذنك ! »

ثم تتجه نحو باب الكافتيريا الدوار رشيقة كغزال . غزال نزع الدبلة عن إصبعه ..

وتجلس أنت تحدق فى كوب الليمون الفارغ ، وتشعر بأنك ضعيف جداً .. كالسكارى لن تستطيع العودة إلى دارك .. لا بد من أن يوصلك أحد ..

إنها تمر أمام زجاج الواجهة مبتعدة وصورتك تنطبع عليها ..

ما لا تعرفه هو أنك أحببتها فعلاً.. أنك استمددت أمل كل لحظة قادمة منها هى ..

وما لا تعرفه هو أنك فشلت فى الالتحاق بالجامعة برغم تفوقك .. وظيفة المعيد الوحيدة حصل عليها ابن الدكتور (فلان).. وما لا تعرفه هو أنك علقت حياتك كلها على لحظة دخول الجامعة لتكون أستاذاً فى الفيزياء ..

ما لا تعرفه هو أنك لم تتخيل يومًا أن تكون مدرس فيزياء فى مدرسة ثانوية .. قد يبدو هذا رائعًا للبعض لكنك كنت تحلم على نطاق واسع ، ولا ترى صورة لـ (أينشتاين) أو (فيرمى) أو (رذرفورد) إلا وشعرت بأنهم يشبهونك وأنك قادم من ذات العالم ..

ما لا تعرفه هو أنك فقير مفلس وأنك لا تعرف كيف سيكون الغد .. هنا وحيدًا فى المدينة القاسية الملطخة بالأصباغ وأمك فى القرية تنتظر نجاحك ...

لن تعود من دون نجاح .. لن تعود ..

القهوة توضع أمامك فترشف منها رشفة .. سادة بلا سكر لكنك لا تملك القوة كى تنادى النادل وتلومه .. لا قوة .. لا ثقة بالنفس ..

ربما كان السكر ليس من حقك .. فقط الناجحين يضعون السكر فى قهوتهم ..

وأنت كنت ناجحًا يومًا ما ..

كنت أذكى طالب فى الصف ، وكان المدرسون يشهقون بمجرد أن تفتح فمك .. هل تذكر كيف حسبت شحنة الإلكترون قبل أن تقرأ الدرس ؟ هل تذكر كيف خرج المدرس من المختبر فقمت بتحضير الهيدروجين معتمدًا على معلوماتك العامة باستعمال الخارصين والحمض ؟ وعندما لم يصدق أصحابك أن هذا هو الهيدروجين طلبت من (طاهر أبو زينة) أن يشعل عود ثقاب ويقربه من فوهة أنبوب الاختبار ؟ الهيدروجين يشتعل بانفجار .. وهكذا .. بوم !!!!

حتى عندما عوقبت وبينما الدم ينزف من جروح وجهك كان الجميع يدرك أنك عبقرى وأن لك شأنًا عظيمًا ..

ماذا حدث ؟؟

لماذا توقف مسار حياتك فجأة ثم راح يتقهقر ؟

لكن ما لا يعرفونه هو أنك اتخذت قرارك منذ زمن .. وأنت تحمل فى جيبك الحل لكنك كنت بانتظار اللحظة المناسبة .. عندما تدرك ألا أمل هنالك ..

الآن هنك مخرج سرى من هذا العالم القاسى ، وهذا المخرج يشبه قلاع القرون الوسطى التى كانت تزود بباب سرى كى يفر منه الحاكم إذا توترت الأمور واشتد الحصار ..

تمد يدك فى جيبك وتنظر حولك ..

علبة دواء السكر التى لم تعد تتخلى عنها وتحملها معك فى كل مكان .. تفرغ الأقراص فى قبضتك ثم تقذف بها إلى فمك وتبتلع كوب ماء ..

هكذا .. لا شىء .. لا ألم ..

هذه ميتة تختلف كثيرًا عن الوثب المرعب فى النيل أو من فوق البرج .. تختلف عن المجانين الذين يشعلون النار فى أنفسهم والمخابيل الذين يقطعون شرايين أيديهم ..

غيبوبة سريعة ثم ينتهى كل شىء .. ربما يبدأ الأمر بدوار وعرق وربما تشنجات لكنها سوف تنتهى حالاً ..

فقط يجب أن تنعزل الآن سريعًا وإلا حاولوا إنقاذك ..

هكذا تنهض مسرعًا وتتجه إلى دورة المياه .. فيما بعد سوف يبحثون عنك .. سوف يحطمون الباب لكن القصة ستكون منتهية بالنسبة لك ..

تتجه إلى الحمام .. تدخل إلى واحد نظيف تفوح منه رائحة حمض الكربوليك .. تجلس بكامل ثيابك على المقعد وتسند رأسك إلى قبضتك وتحاول أن تنام بانتظار لحظة البدء .. أن يصل العقار إلى دمك ..

لحظة .. لحظة .. لحظة ..

فجأة تسمع صوت ضربة .. باب ينفتح .. ثم تفاجأ بمن يقتحم الحمام الذى تجلس فيه .. هناك من ركل الباب بقوة ليفتحه ..

يد تمسك بك وتجرك جرًا إلى الخارج ..

تسمع ذلك الصوت يقول :

ـ « هلم ! أفرغ معدتك حالاً ! »

كوب ملىء بالماء المالح يصب فى فمك صبًا ثم أحدهم يغرس إصبعه فى حلقك لتفرغ معدتك .. تفرغها فوق الحوض .. مذاق الملح والحمض .. أنت تكره هذا .. تكرهه .. تحاول المقاومة لكنهم كثيرون ..

- « هلموا ! هل جاء الإسعاف ؟ »

ثم :

- « هلموا ! أين الفتى الذى ذهب إلى الصيدلية ؟ »

ثم هناك من يلقى بك على الأرض .. إبرة تغرس فى ذراعك .. زجاجة بلاستيكية معلقة يتم إفراغ ما بها إلى عروقك وأنت ما زلت على أرض الحمام تنظر للسقف وتحاول فهم ما يحدث ..

- « لقد أعطيته زجاجتى دكستروز عالى التركيز ، لكن مستوى السكر فى دمه سيهبط ثانية .. يجب أن يأتى الإسعاف حالاً .. »

ثم تشعر أنك وضعت على محفة ..

تسمع ذلك الصوت يقول :

- « كان يجلس بقربى ورأيته يبتلع تلك الأقراص جرعة واحدة .. عندما نهض إلى الحمام وجدت هذه العلبة فارغة وملقاة على المنضدة .. هذا علاج لا يمكن تجاوز قرصين أو ثلاثة منه .. دعك من أنه كان يتصرف بطريقة غير طبيعية منذ جلس .. »

ثم تسمع من يتكلم فى وقار قائلاً :

- « من حسن حظه أنك كنت هنا يا دكتور .. قلت لى ما اسمك ؟ »

الصوت الذى سمعته حتى أصبت بالملل يقول :

- « اسمى (رفعت).. (رفعت إسماعيل) .. »

* * *

ـ ٥ ـ

هكذا عرفت (سليمان الخولى) ، وهكذا تكونت تلك الصداقة الغريبة بيننا ..

صداقة بين شاب حديث التخرج يشبه (على مصطفى مشرفة) وعجوز عصبى .. صداقة بين منتحر والطبيب الذى أنقذه .. لقد كنت فى ذلك اليوم أجلس إلى منضدة مجاورة أرمق ذلك المشهد الذى أدركت على الفور أنه نهاية قصة حب . ظللت أرمق الفتى الجالس وحده على سبيل الشفقة والفضول .. إلى أن رأيته يتخذ هذا القرار الدرامى المخيف ، وقد نهض ليدخل الحمام فأدركت على الفور ما فعله .. كنت أعرف أنه لا (يلف) كما تفعل الفتيات الهستيريات عندما يبتلعن ثلاثة أقراص من الأسبرين ويملأن الدنيا صراخًا .. أولاً لأن أحدًا لم يره وهو يقوم بما قام به ، وثانيًا لأن من يحمل هذه الملامح لا يمزح ..

نجا الفتى ، والفضل لله أولاً ثم لعبد الله الذى كان جالسًا يراقب الموقف .. يقول الأطباء النفسيون إن الانتحار هو نوع من الجنون المؤقت ، وقد أدهشنى أن يحل جنون مؤقت بهذا الفتى شديد الذكاء ..

اعتدت أن أزوره فى المستشفى عندما كان فيها ، ثم التقينا فى مقهى جوار بيته عدة مرات ، وأجريت له نوعًا من غسيل المخ .. قلت له إن الشباب هبة فى حد ذاتها .. لديه الغد كله ليتزوج ملكة جمال العالم ويفوز بجائزة نوبل ويتسلق جبل (إفرست) .. ربما يصير رئيس (كوستاريكا) أو سفيرنا إلى (عطارد) .. كل شىء ممكن بينما لم يعد شىء ممكنًا لمن فى مثل سنى ، حيث صار المستقبل ذاته ماضيًا .. نصيحتى لك أى بنى هى **carpe diem** كما يقولون باللاتينية ..

ينظر لى فى عدم فهم فأقول :

ـ « أى : اقتنص مباهج اللحظة .. لا تفكر فى الغد »

الحقيقة أنه كان عاثر الحظ فعلاً وقد تلقى صفعات فى كل مكان تقريبًا .. لكن إصلاح كل شىء ما زال ممكنًا .. لو انتحر كل شاب خسر فرصة العمل فى الجامعة ، وتخلت عنه خطيبته ، وحاصره الفقر ، لما بقى فى العالم أحد ..

سألته بعد خروجه من المستشفى عن نوعية دراسته فقال :

ـ « الفيزياء .. لى اهتمام خاص بالكهرباء .. »

ـ « تدرس الجول والإرج والفولت وهذه الأمور ؟ »

نظر لى كأنما يخشى أن أكون مازحًا ثم انفجر فى الضحك ، وقال :

- « نعم .. لكنى مهتم بأمور أعقد من هذا .. كأننى أسألك عما إذا كنت تدرس العضلات والجهاز الدورى فى كلية الطب ! »

- « وأين تعمل ؟ »

تنهد طويلاً ثم قال :

- « فى الوقت الحالى أعمل فى دارى وبشكل مستقل .. إن لى أبحاثى الخاصة منذ دخلت الكلية .. لكنى كنت أتمنى أن أجد إمكانيات جامعة تحت يدى .. أن أسافر للدراسة بالخارج على نفقة الدولة .. »

قلت فى دهشة :

- « أى أنك تمارس البحث العلمى (من منازلهم) »

- « هو كذلك .. »

ثم مال نحوى وضيق عينيه فى خطورة وقال :

- « هل تسمع عن عالم ما وراء الطبيعة ؟ »

نظرت له للحظة ثم قلت فى جدية :

- « لا .. لا أعرف أى شىء عن هذه الأمور .. »

ضحك كثيرًا من جهلى المطبق وقال :

- « لا يمكن أن تتصور أبعاد هذا العالم الملىء بالأسئلة .. إنه عالم مذهل مثير .. ألم تسمع عن القدرات الخارقة والأشباح وكل هذه الأمور ؟ »

هززت رأسى فى إصرار وقلت :

- « لا أعرف شيئًا عن هذا صدقنى .. أسمع عنه وأراه فى السينما لكنى لم أجربه وأعتقد أنه مثير للفزع ! »

- « لا تعرف شيئًا ؟ »

- « البتة .. »

قال وهو مستمتع بجهلى :

- « كانت تجاربى تدور حول دراسة هذه الظواهر بشكل فيزيائى .. أحاول أن أضع قوانين محددة لهذه الأشياء .. لم أصل لشىء لكنى كنت آمل أن أطور أساليبى أكثر .. »

- « وهل تعتقد أن هناك جامعة تقبل أن تمارس فيها هذه التجارب ؟ . هذا كلام لا رأس له ولا ذيل ولا يمكن أن تقبل به جهة علمية محترمة .. »

- « أعتقد أنهم قد يرحبون به فى الخارج .. أما هنا فلا .. »

ثم هتف فى حماس :

- « لو زرت بيتى لعرضت عليك بعض الأمور المثيرة .. »

استخدام الكهرباء فى دراسة علم الماورائيات ؟ هذا هو الجنون بعينه .. شبيه العلم الذى أرهقونا وعذبونا به .. على طريقة (سرعة الصوت هى ثلث كيلومتر فى الثانية .. وهذا يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الغيلان وجدت فى القاهرة منذ ٣٠٠ عام) .. هذا يعطى المستمع ثقة بالكلام برغم أنه لا علاقة بين المقدمات والنتائج .. فقط يفترض لا شعوريًا أنه كلام محترم مادام يقول (سرعة الصوت) وما إلى ذلك .. تكلم عن الكهرباء وفرق الجهد والتردد ثم تكلم عن (أبو رجل مسلوخة) ولسوف يبتلع غير المدققين الخدعة .. وسوف تكتب أكثر من جريدة أن العلم الحديث أثبت وجود (أبو رجل مسلوخة) ..

على كل حال يذكرنى هذا بجو أبحاث (جوزيف بانكس راين) و(إيجور تاركوفسكى) .. لكن (راين) هو الاسم الذى حاول جاهدًا أن يمنح احترامًا لهذه العلوم ونجح إلى حد كبير ..

هكذا تنصلت من زيارة الفتى .. لا أريد أن أشغل عقلى بهذا الهراء .. لو كان بارعًا فليوفقه الله ولو كان نصابًا فهذه مشكلته ..

لم أعد أقابله بذات الإفراط لكنى احتفظت به قريبًا .. أولاً هو ذكى فعلاً .. ثانيًا هو شديد الحساسية صادق .. ثالثًا .. من يدرى ؟ ربما أحتاج إليه يومًا ما .....

والحقيقة أننى كنت صادقًا فى حدسى ..

لقد كان ذلك اليوم قريبًا جدًا ...

كان هناك ذلك الفتى بأبحاثه الغامضة واكتئابه .. وكانت هناك (راتية) برؤاها المخيفة واضطرابها .. خطان متوازيان ما كنت أعتقد أنهما يلتقيان أبدًا .. هذا ما تعلمناه فى الرياضيات .. لكن يبدو أن الرياضيات علم يتطور باستمرار ..

لقد التقى الخطان بالفعل وكان هذا قرارى أنا .. لكننا سنعرف المزيد فيما بعد .. ليس الآن ..

★ ★ ★

- ٦ -

فى هذا الوقت تقريبًا حدث ما حدث لـ (رانية)..

لا بد أنه كان مساء سبت .. كانت الأسرة تجلس أمام جهاز التليفزيون وهى فى غرفتها تعد الدروس للغد .. لقد عاد (مختار) من الخارج منذ ساعة فهى إذن من تلك الأمسيات الهادئة المعدودة التى تبدأ مبكرًا ، والتى يمارس فيها (مختار) الجو الأسرى .. بينما اعتادوا أن يعود للبيت فى ساعة متأخرة جدًا ليأكل كأفراس النهر ويتشاجر كالخراتيت ثم ينام كالصخرة ..

سمع الأبوان صرخة عالية من غرفتها مع صوت شىء يرتطم بالأرض ..

هرع الجميع إلى الطابق الثانى من الفيلا .. (مختار) يثب الدرجات بينما الأم تحاول أن تنقل كل هذه الشحوم لأعلى .. والطفل راح يتعثر فى مؤخرة الركب لأنه كان خائفًا بطبيعة الحال ..

اقتحم (مختار) الغرفة فوجد (رانية) ملقاة على الأرض فاقدة الوعى .. جوارها على المكتب حقيبة مفتوحة وعلى الأرض تناثرت كتب الكيمياء والاستاتيكا والفرنسية .. قصة موجزة جدًا .. كانت تعد الحقيبة للمدرسة غدًا عندما حدث هذا ..

بينما أطلقت الأم الكثير من الصرخات و(بنتى) و ... و...
كان (مختار) عمليًا جدًا .. اتجه إلى الهاتف ليطلب أول أحمق متاح ..

- « (رفعت) .. تعال حالاً. »

- « هل هناك كارثة ما ؟ إننى لم أتناول عشائى بعد .. »

- « قلت لك تعال حالاً .. »

- « هل من تلميح ما ؟ »

- « (رونى) فاقدة الوعى .. »

- « (رونى) ؟ ومن هى (رونى) ؟ »

- « (رانية) يا أحمق .. (رانية) ابنتى ! »

- « مالها ؟ »

فوضع السماعة لأن أعصابه لم تتحمل أكثر .. لو كنت أمامه لانتزع رأسى بأسنانه ..

يجب أن أعترف منذ البداية أننى لم أكن متحمسًا .. أن يجرونى من دارى لحالة فقدان وعى لا بد أنها ستنتهى خلال ثوان .. الجسم البشرى قد أعده الله ليعالج نفسه ، والسقوط أرضًا هو الطريقة المثلى لعودة الدم إلى الدماغ ،

أما الناس العباقرة فيحاولون جاهدين منع هذا إذ يجلسون فاقد الوعى وربما يرغمونه على الوقوف كذلك .. دعك من أن الفتاة من الطراز الواهن (النوراستانى Neurasthenic) إياه .. فى الغرب يطلقون عليهن اسم pretzel ladies أو ما يشبه قولنا (البنت البسكويتة) .. فلو لم تكن تفقد الوعى ثلاث مرات يوميًا لكنت مجنونًا .. تفقد الوعى عندما تجوع .. تفقده عندما ينبح الكلب .. تفقده عندما تنفعل .. تفقده عندما لا تجد شيئًا آخر تفعله ..

دعك من (متلازمة الجيب السباتى) حيث يفقد الناس وعيهم لأى شىء يتعلق بالعنق .. غلق أزرار الياقة .. حلاقة الذقن .. أى شىء .. هؤلاء ليسوا مرضى لكنهم - فقط - أكثر حساسية من الآخرين ..

لكنى لم أستطع التملص .. هكذا لحقت بهم ...

لكنى عندما وصلت للفيلا وفتح لى (مختار) الباب رأيت وجهه قلقًا .. أدركت أن الأمر مقلق فعلاً .. المفترض أن تكون قد أفاقت وتجلس الآن تشرح لهم كيف لم تشعر بشىء لحظات ..

كانوا قد حملوها إلى الفراش ووضعت أمها الكثير من الأغطية فوقها باعتبار كل داء فى العالم سببه البرد كما تعلمون ..

فحصت الفتاة فوجدت نبضها على ما يرام وتنفسها منتظمًا وأطرافها دافئة .. هى ليست فى صدمة إذن .. الحدقتان تستجيبان للضوء ولا تمارس عيناها تلك العادة البذيئة التى تمارسها عيون الدمى عندما تتابعك مهما كان وضع الرأس وتكل على كارثة أكيدة .. فقط كان جبينها متورمًا من إثر السقطة ..

حاولت أن أوقظها عن طريق تنبيه بعض المراكز العصبية لكن لا استجابة .. رفعت يدها فوق وجهها ثم تركتها تسقط فهوت إلى جوارها لا على وجهها .

درت بعينى فى الغرفة فرأيت المكتب حيث كانت تعد حقيبتها .. كانت هناك مرآة كبيرة معلقة فوقه .. هناك مرآة أخرى على خزانة الثياب .. ترى .. هل ....؟

رفعت رأسى وأخذت شهيقًا عميقًا ونظرت إلى الأبوين القلقين وقلت :

- « الأمر ليس بهذه البساطة .. لا بد من مستشفى .. »

صاح فى عصبية :

- « لم ؟ اطلب أى شىء وسنقوم به هنا .. »

- « لا تكن طفلاً .. لا بد من قياس سكر الدم ووظائف الكلى .. لا بد من بعض فحوص الأشعة .. لا بد من رأى مختص بالأمراض العصبية .. لست (سوبرمان) يا صاحبى .. »

ثم أضفت وأنا أتفحص حدقتيها :

ـ « تبدو سليمة تمامًا .. لكن أؤكد لك أن هذه ليست حالة إغماء عادية »

هز كتفيه ثم اتجه إلى الهاتف ..

★ ★ ★

فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى كنا قد فعلنا كل شيء ممكن .. كان رأى أكثر من طبيب أن هذه (غيبوبة هستيرية) لا يوجد لها أى سبب عضوى ..

الفتاة سليمة وجهازها العصبى يعمل كأفضل ما يكون .. هى نائمة لكن أحدًا لا يستطيع جعلها تصحو .. لاختبار رفع اليد المميز للغيبوبة الهستيرية واضح تمامًا .. مريض الهستيريا لا يحب أن يؤذى نفسه .. كما أن رسم المخ الكهربى لم يظهر شيئًا ذا بال ..

قلت فى غيظ :

ـ « إذن هى فى غيبوبة .. نائمة ولا تصحو معناه غيبوبة .. »

فعادوا يقولون فى صبر :

ـ « ونحن لم نقل غير هذا .. لكنها غيبوبة هستيرية »

بعد يومين كانوا غارقين فى التفكير فى حلول .. وفكر أحدهم فى صدمة كهربية لمخ الفتاة الأمر الذى لم يرق لى كثيرًا .. أعتقد أنه كان يتكلم من منطلق الغيظ لا منطلق الحكمة الطبية ..

فقط أنقذ الفتاة أن مر أحد الأساتذة الكبار شائبى الشعر الذين راح (مختار) يمطرها بهم وفحصها .. ثم قال لـ (مختار) فى تؤدة :

ـ « سوف تفيق من هذه الغيبوبة عاجلاً أم آجلاً .. فقط عليك أن تصبر وألا تعذبها محاولاً جعلها تفيق .. إن مريض الهستيريا يضغط على أعصاب من حوله فعلاً وبعضهم يتلقى ضربًا مبرحًا .. يجب أن تتأكدوا من تغذيتها وجعلها تتقلب فى الفراش ...أرى أن بقاءها هنا سيكون مشكلة عليكم دعك من النفقات الباهظة ، لهذا أقترح أن تأخذها للبيت وتجد لها ممرضة تقوم بهذا كله .. »

كانت (عواطف) ممرضة لا بأس بكفاءتها .. إنها أرملة فى العقد الرابع من العمر نشطة وقد تقاعدت منذ فترة لكنها قبلت أن تقوم بهذه المهمة لقاء راتب ، ومن أجلى فقط ...

هكذا وجدنا أنفسنا فى موقف سيئ لكنه مستقر .. (رانية) فى الفراش وذلك الأنبوب يخرج من أنفها حيث

تحقن فيه (عواطف) اللبن والعصائر كل ساعتين ، وأخوها لم يعد يقيم فى الغرفة التى تفوح منها رائحة بودرة (التلك) الممزوجة برائحة الكولونيا .. الخليط الضرورى لمنع قرح الفراش .. تلك الرائحة التى لا أشمها إلا وشعرت بالتقزز .. لو أن للغيبوبة رائحة فتلك رائحتها ..

جوار الفراش هناك جهاز كاسيت لا يكف عن إذاعة شرائط القرآن للشيخ (الطبلاوى) و(عبد الباسط) ، وقد تكفلت (عواطف) بتبديل الشريط كلما انتهى بشريط آخر .. والحق يقال إنها فكرة طيبة لأننى كنت قد بدأت أشعر بجو مشئوم كئيب فى هذه الفيلا .. أعتقد أنه ذلك الشعور الخفى الذى لا أعرف كنهه والذى يشعرنى بوجود (شىء ما) ..

الأم تقضى جوارها أكثر الأوقات .. تهمس لها بصوت خافت تلك القصص التى تحبها .. تعبث فى شعرها ، أو تفتح كفها وتلصقه بشفتيها لعدة ساعات .. هذا خطأ فادح بالنسبة لمريض الهستيريا لأنه يجعله يتمادى حتى وإن لم يدرك هذا .. الفتاة تجد نفسها قد تحولت من (الزفتة) إلى (حبيبة ماما) وهذا مغر جداً .. نصحت الأم بأن خير علاج للفتاة – ولمريض الهستيريا عامة – هو التجاهل التام .. لكنها لم تكن مستعدة لسماع أية نصيحة منى باعتبارى صورة أخرى لغربان البين ..

كان أبواها فى حال سيئة ، لكننى كنت فى حال أسوأ .. لم أبتلع قط فكرة أن هذه الزهرة اليانعة تحولت إلى نبات راقد فى فراش .. لو كان هناك مرض واضح .. لو كان هناك التهاب مخ أو نزف أو فشل فى عضو مهم لقبلت .. هذه قواعد اللعبة وعلينا أن نلعب بها .. لكن جسد الفتاة سليم تماماً وجهازها العصبى ممتاز .. هذا يثير الغيظ .....

كما قلت لـ (عزت) فى تلك الليلة وأنا أجلس معه فى شقته التى هى مزيج من مرسم ومقلب قمامة :

– « تخيل أن رجلى شرطة قبضا عليك واحتجزاك فى زنزانة .. يقولان لك إنك لم تفعل شيئاً .. لا مخالفات على سيارتك وصحيفة سوابقك ناصعة البياض .. التقارير الأمنية عنك ممتازة ، لكننا برغم هذا سوف نحتجزك .. سوف تصرخ .. تهز القضبان .. تتشنج .. تضرب رأسك فى الجدار .. لا جدوى .. سوف تمضى حياتك فى الزنزانة ولن يزورك أى محام ولن تحاكم .. هذا هو وضع تلك البائسة .. »

قال (عزت) وهو يعجن قطعة من الصلصال لا أعرف إلام ترمز :

– « لكن ذلك الأستاذ الكبير يقول إن الزنزانة ستفتح يوماً ما .. »

- « متى ؟ هذه هى المشكلة .. لو أفاقت بعد ثلاثين عامًا فإننى أفضل لها أن تموت الآن .. شبابها يمضى وهى لا تعرف ذلك .. »

- « أى شباب يمضى ؟ قلت إن لها أسبوعين .. أيام فى هذه الغيبوبة لا أكثر . »

- « لكنهما مرا كدهر على أبويها .. ولا ألومهما على ذلك .. »

قال (عزت) فى حذر وهو يلقى بقطعة الصلصال فى القمامة :

- « لا أريد أن أفتح شهيتك .. لكن القصة غريبة .. تبدو لى أقرب إلى تلك الأمور التى تهتم بها .. ألم تحاول قط الربط بين ما يحدث وبين تلك الرؤى التى كانت تشكو منها ؟ »

فكرت فى الأمر للمرة الأولى على ضوء جديد وبدا لى شىء من الصواب فيما قاله ..

★ ★ ★

-٧-

قال (مختار) وهو يحك رأسه :

- « أنت جننت تمامًا .. هذا لا شك فيه .. »

- « قل لى أى شىء ليس مجنونًا فيما نمر به »

- « سوف تقع وتهشم عنقك .. وبعدها سيكون على أن أفسر كل شىء لرجال الشرطة .. »

- « أنت محام فلن تكون هناك مشاكل »

كنت أقف جوار الدرج فى داره ممسكًا بشمعة وفى اليد الأخرى تلك المرآة المستديرة التى تقول لى (ما من أحد كامل) .. كأن من صنعها اختار العبارة خصيصًا لى ...

كانت خطتى هى أن أكرر تجربة (مارى الدموية) كما فعلتها (رانية) مرة أخرى وبالحرف الواحد .. فقط على (مختار) أن يظلم المكان ويختفى .. أريد أن أمارس التجربة وحدى .. أريد أن اعرف ما إذا كان شىء سيظهر لى فعلاً أم لا ..

قال (مختار) فى سخرية مكتومة :

- « الفتاة ترى فى المرآة وجه عريسها القادم ، فهل تبحث أنت كذلك عنه ؟ هل أنت قلق بصدد فارس أحلامك ؟ »

قلت مبتلعًا سخريته :

- « لو كان هنك شيء يظهر فى المرآة فأنا أريد أن أراه .. سمه عريسى القادم أو الجانب المظلم من نفسى أو الجان الأزرق .. فقط أريد أن أرى .. »

هكذا نفذ ما قلت .. أطفأ الأنوار كلها وتركنى أقف عند أسفل الدرج ثم صعد إلى الطابق الثانى مع أسرته مستهديًا بكشاف يدوى صغير .. وقال قبل أن يغيب عن عينى من فوق (الترابزين) :

- « عندما تموت احرص على أن يبدو الأمر كحادث واضح أمام رجال المختبر الجنائى .. لا أريد أن أتهم بأننى دفعتك من فوق الدرج .. »

- « سأحرص على هذا .. هل ترغب فى أن اكتب لك (مخالصة) ؟ »

- « ليس إلى هذا الحد .. سلام .. »

وأخيرًا تواروا ووجدت أننى أقف فى الظلام ....

* * *

آه يا (يانج Jung) .. أيها العبقرى !

ما أدق ما قلته عن اللاشعور الجمعى ومخاوف الماضى المتراكمة فينا ! هأنذا الشيخ المسن ذو الخبرة .. الذى رأى أشياء يفوق عددها الحصر .. هأنذا أقف فى الظلام شاعرًا بخوف عاصف .. كل مخاوف الظلمة التى عرفها الإنسان تحتشد فىّ فى هذه اللحظة برغم أن لدى كل ما يدفعنى للظن بأن (رانية) واهمة .. هناك ظفر خدش طبقة الحكمة السطحية فى عقلى فبرزت مخاوف الماضى الكامنة فى عقلى الباطن ..

لعله ضوء الشمعة .. هذا الضوء اللعين المتراقص .. إنه يلقى ألف ظل وألف احتمال ..

وفى المرآة أرى وجهى وقد كسته تلك الظلال القادمة من أسفل مما منحه سمتًا شيطانيًا .. أقدم حيلة عرفها مديرو الإضاءة فى أفلام الرعب حتى لم يعد هناك شرير فى الأفلام القديمة إلا وله إضاءته الخاصة القادمة من أسفل ..

الآن أتراجع ببطء وعينى لا تفارق المرآة ..

أتراجع .. أتراجع ..

أصعد أول درجة .. ثم الثانية ..

أشعر بمزيج فريد من السخف والجنون والرعب ..

أصعد درجة ثم أخرى .. درجة ثم أخرى ..

بحذر شديد أرمق المرآة .. وأختلس نظرة لقدمي ..

لقد صعدت نحو عشر درجات .. لا شيء في المرآة إلا نصف وجهي .. لا أحد ورائي إلا الظلام ..

نظرة أخرى لقدمي .. ثم ...

ما هذا !

من الذي يقف خلفي ؟

الآن أراه بوضوح .. لم تكن الفتاة هستيرية ولا مخبولة بالفعل هو وجه متآكل يكسوه العفن وينظر لي عبر المرآة كأنه يقف وراء كتفي .. بشكل ما أشعر أنه مألوف .. وبرغم الظلال وضوء الشمعة المتراقص هناك فجوة لا شك فيها في موضع العين ..

وقفت في موضعي وقلبي يخفق .. يثب .. ينتفض .. تلوت المعوذتين بسرعة وأخذت نفسًا عميقًا ..

وبصوت مبحوح سألته :

ـ « من أنت ؟ »

تحركت شفتاه المهترئتان وراح يردد بصوت خفيض مبحوح كلمات لم أفهمها .. ثم بدأت أدرك ما يقول :

ـ « فتش في بيت الأشباح .. وسوف تهديك الأرقام .. »

ـ « فتش في بيت الأشباح .. سوف تهديك الأرقام .. »

وفجأة تراجعت للخلف أكثر وقد خرج مركز ثقلي عن قاعدة جسدي .. كنت في وضع حرج من الناحية الديناميكية ، لذا لم تجد قدمي ما تستند إليه ..

سقطت ثلاث درجات .. ثم توقفت فلم أنحدر إلى أسفل أكثر لحسن حظي ، لكني أطلقت صرخة .. ثم أدركت أن كاحلي قد التوى .. وإلا ما تفسير كل هذا الألم الذي اجتاحه ؟

ألم حارق آخر في يدي فأدركت أن الشمعة قد سقطت وأنها الآن تحاول أن تجد حياة جديدة على الدرجات الخشبية .. هكذا أطفأتها في لهفة بنفخة جعلتني أسعل ....

يا له من موقف !...

أنا عاجز عن الحركة بينما ذلك الشيء أعلى الدرجات وعلى الأرجح يهبط نحوي الآن ..

ظلام دامس أولي .. ظلام بكر ..

إنني ....

ثم أدركت أن الشىء لم يكن آتيًا .. وإلا فمن أين يجد كشافًا كهربيًا ؟ كان القادم هو (مختار) وقد سمع صرختى والضوضاء ..

وعلى ضوء الكشاف وجدنى على الدرجات أمسك بكاحلى وأئن ..

صاح فى غيظ :

ـ « يا لك من أحمق .. توقعت هذا ! كأن ليس لدينا ما يكفى من مصائب ! »

قلت وأنا أضغط على أعصابى :

ـ « هناك شىء لعين فى هذا البيت .. لقد تأكدت من هذا .. كما تأكدت من أن خلاص ابنتك يتوقف عليه .. هناك أشباح هنا وسوف نجدها !! »

* * *

ـ ٨ ـ

كانت ليلة سوداء بالنسبة لـ (مختار) لأنه اضطر أن يحملنى بسيارته إلى المستشفى حيث قاموا بلفّ رباط ضاغط حول كاحلى .. الحمد لله أنهم لم يستخدموا الجبس .. تخيل شخصًا بعصبيتى يرغم على وضع قدمه فى هذا السجن ..

فى اليوم التالى كنت قد ابتعت عكازًا فصار منظرى رائعًا .. لم يبق إلا أن أترك لحيتى بلا حلاقة ثلاثة أيام ، وأحمل كيسًا قماشيًا به بعض الخبز وثمرات الطماطم وأتسول ..

لكن هذا لم يفتّ من عضدى عندما جئت إلى (مختار) عصرًا وقلت له :

ـ « القصة واضحة .. هناك شىء فى هذه الفيلا .. لن أقول لفظة أشباح .. فقط ما زلت أرغب فى معرفة تاريخها كاملاً .. »

عبث فى شاربه كعادته عندما يحاول السيطرة على مشكلة ما .. إنه يظهر للمشكلة مدى حزمه ورجولته من ثم تخجل وترحل .. وقال فى ضيق وهو يقدم لى كوبًا من الشاى :

ـ « لا أعرف أى شىء سوى ما عرفته .. مالك الفيلا السابق هو (كامل البدراوى) من أعيان ما قبل الثورة .. كل الناس تعرف أنه كان يعيش على مدخراته .. نموذج

الرجل العجوز المتوحد الذى لم يكن أحد يزوره .. عنده حمام سباحة ولم يره أحد جالسًا أمامه فضلاً عن السباحة فيه .. فقط يعيش فى الفيلا مع طاه عجوز وهناك امرأة تأتى من حين لآخر كى تقوم بالتنظيف وتبتاع الأشياء من السوق .. الثرى العجوز لا يفعل شيئًا إلا أن يجول على قدميه متريضًا ساعة فى اليوم .. كالعادة يأتى الطاهى ذات صباح من زيارة أهله ليجد أن (كامل) لا يصحو من النوم .. لقد مات أثناء نومه لكن أحدًا لا يندهش عندما يموت رجل فى الثمانين لو أردت رأيى .. هكذا انتهت قصة الرجل وقد قام نحوه الطاهى بكل شىء .. أنت تعرف هذه العلاقة الحميمة بين الخادم ومخدومه عندما يعيشان معًا أكثر من ثلاثين عامًا .. لقد صارا أخوين .. هكذا غاب (البدراوى) فى مقابر أسرته وترك الطاهى الفيلا ليعود لقريته .. بعد أشهر يظهر (هانى البدراوى) قريب المتوفى قادمًا من كندا ولا هدف لديه إلا بيع الفيلا .. لم يكن يحمل أى نوع من الحنين للاحتفاظ بدار قريبه .. إنه عجول يريد إنهاء الإجراءات بسرعة ويريد أى سعر .. هكذا قصد مكتبى ليأخذ رأيى فكانت صفقة لا بأس بها .. سر نجاحى فى الحياة هو أننى أعرف الفرصة عندما تدق بابى بينما أمثالك لا يفعلون إلا تغطية رءوسهم والشكوى من الضوضاء .. لماذا لا تبيعنى الفيلا يا أخ (هانى) ؟ سوف أريحك من الإجراءات وأدفع لك الثمن فورًا .. هكذا وافق .. »

قلت مفكرًا :

- « معلومات غير كافية .. غير كافية على الإطلاق .. »

- « لو كنت أعرف أنك ستهتم بالموضوع لطلبت تاريخًا موثقًا فى عدة مجلدات .. »

قلت له وأنا أرشف الشاى :

- « سوف نقوم بتفتيش المكان جيدًا .. لا بد أن هناك علية .. لا بد أن هناك قبوًا .. أتوقع أنه ترك شيئًا ما يدل عليه .. لقد قال هذا المسخ الذى رأيته : فتش فى بيت الأشباح .. سوف تهديك الأرقام .. هذا يعنى شيئين : أولاً هذا بيت أشباح فعلاً .. ثانيًا هناك أرقام وهذه الأرقام سوف تقودنا إلى شىء مهم .. »

- « كما تحب .. لكن لا تضعنى فى مشاكل أخرى معك .. »

ثم فكرت بعض الوقت وقلت :

- « هل لديك فكرة عن هذه الأرقام التى يتكلم عنها الشىء ؟ »

هز رأسه أن لا .. هو على كل حال لا يصدق أنى سمعت شيئًا على الإطلاق .. فوضعت كوب الشاى وقلت وأنا أنهض متوكئًا على العكاز :

ـ « فلتر .. هيا بنا .. »

★ ★ ★

وقفت أنظر إلى القبو المغبر على ضوء الكشاف .. هناك مصباح كهربى لكنه محترق .. أكوام من كتب ونسيج عناكب وخرق قماش وأجهزة عتيقة لا تعرف إن كانت أجزاء من طوربيد أم آلات كاتبة عتيقة .. لا بد أن تنغمس فى الغبار كى تعرف .. هناك جراموفون قديم ومرآة مهشمة وصورة عملاقة لها طابع ألوان (السيبيا) على الجدار لـ (فاطمة رشدى) ممثلة السينما الحسناء التى كانوا يسمونها (صديقة الطلبة) لأن صورتها كانت فى غرفة كل طالب ..

هناك مقعد متحرك فقد عجلاته وأكوام من زجاجات الزيت الفارغة .. لسبب ما كان هذا العجوز مولعًا بزيت التموين ..

كانت هناك صورة عتيقة فى إطار تمثل رجلاً مطربشًا يشبه كل الرجال فى الماضى عندما كانوا يقولون (سعيدة مبارك) و (طقس فى غاية البداعة) .. يبدو أنه لم يكن للرجال شكل آخر .. الاعتداد بالنفس والشارب اللامع المعتنى به والطربوش وربطة العنق السميكة شبه المفكوكة تتثنى فوقها ياقتا القميص ، وكأنه سى (عبده الحامولى) يوشك على

غناء طقطوقة جديدة .. تحت الصورة وضعت وراء الزجاج ورقة تحمل هذه الأبيات بخط ديوانى رائع الجمال :

نمضى الحياة وكلنا فى دربها ونغيب عنها .. والخطى لا تندثرْ

مـن قبلنا يمشى الألى جاءوا بنا من بعدنا يمشى ملايين البشرْ

فاسمع صرير الريح تبكى حولنا واسمع صدى الأشباح تعوى فى سقرْ

تلك المروج الخضر ما كانت لنا إلا كما الريحان يطلك السحرْ

قرأت الأبيات بصوت عال .. ثم قلت لـ (مختار) :

ـ « من كتب هذا الشعر الردىء ؟ »

ـ « كيف لى أن أعرف ؟ ربما كان (البدراوى) الكبير نفسه .. لا بد أن هذه صورته »

ثم غمغم بالأبيات فى عدم فهم وقال :

ـ « سحقًا له .. لا أفهم ما يريد قوله .. »

ـ « ربما لركاكة التعبير .. يريد القول إنه سيترك الحياة كما تركها من سبقوه .. إن مباهج الحياة ليست من حقه إلا لو كان من حق الريحان أن يطالب بامتلاك السحر .. »

- « وما علاقة الريحان بالسحر ؟ »

- « كان بحاجة لراء ساكنة تختم البيت بعد الفتحة .. لا بد من سحَر أو قمَر إذن .. »

فيما بعد قرأت سخرية الشاعر العظيم سليط اللسان (أحمد فؤاد نجم) من الشعراء المتصنعين الذين يكتبون أغانى على غرار « لاجل العيال .. ولاجل الآمال .. ولاجل أى حاجة آخرها (آل) .. » !! هذا أدق تعبير عن تلك الأبيات ..

وتركنا اللوحة التى يرمقنا صاحبها فى شك ومقت لا جدال فيهما ....

سألت (مختار) وأنا أجوب ببطاريتى وسط هذه التفاصيل :

- « هل غيرت شيئًا فى هذا المكان ؟ هل تخلصت من شىء ؟ »

- « لا .. لم أر نفعًا للقبو ووجدت أن تنظيفه سيكلفنى كثيرًا ، لذا أغلقته .. قررت أن أنسى أنه موجود .. »

رحت أعبث هنا وهناك وأنا أمد العكاز لأنزع هذه الخرقة أو تلك .. لو وجدنا خمس جثث كان مالك البيت يلتهم أجزاء منها كل خميس لما دهشت ..

عنكبوت فاخر المنظر يركض مبتعدًا بينما أنا أمد يدى لكومة الكتب المصفرة التى تحولت أطرافها لآذان كلاب .. أول كتاب خرج فى يدى كان له غلاف جلدى سميك .. فتحته وأنا أسعل من الغبار الثقيل الذى ملأ رئتى وقرأت العنوان الإنجليزى :

Cabala

أى سحر (الكابالا) أو (القبالة) اليهودى المعتمد على الأرقام ، والذى ابتكره الحاخامات كطريقة عبادة فى البداية ثم صار معناه السحر الأسود ولا شىء سواه ..

الكتاب الثانى كان يحمل اسم **Malleus Maleficarum** وهو اسم لاتينى مخيف ، لولا أنك تذكر أن معناه (مطرقة الساحرات) .. الكتاب الرهيب الذى كتبه راهبا الدومنيكان (كريمر) و(سبرنجر) ..

الكتاب الثالث كان له عنوان مرعب هو الآخر .. الجزء الثالث من (شمس المعارف الكبرى) لـ (ابن البونى) .. أشهر كتاب للسحر الأسود فى تاريخ العربية .. فى بعض الدول يمكن أن تتهم بالكفر لمجرد اقتناء هذا الكتاب ...

كان هذا كافيًا ..

استدرت إلى (مختار) الذى وقف لا يفهم معنى هذه العناوين ولا سر الرعب البادى على وجهى .. قلت له بنبرة أثارت قلقه :

— « من جديد تتكرر وتصدق النصيحة الشهيرة : اسأل السمسار لماذا يبيع العقار بهذا السعر الرخيص ؟ »

— « ماذا تعنى ؟ »

— « الأمر واضح .. أنت اشتريت فيلا كان يسكنها رجل غريب الأطوار .. بعبارة أدق كان يسكنها ساحر ! »

★ ★ ★

الجزء الثانى

مقدمات ونتائج

— « هذه الأرض أعرفها ورأيتها مرارًا قبل البناء .. فما الشىء الذى وجده العمال تحتها حتى قرروا أن يخفوه مع إبقاء إمكانية الوصول إليه متاحة ؟ إننى أسائل نفسى .. »

-١-

(من مجموعة خطابات وجدوها فى وقت متأخر جداً) :

القاهرة فى ١٨ نوفمبر ١٩٥٩ :

أخى (رامز) :

أكتب إليك لأن ملامحك لا تفارق مخيلتى ، وقد ذكرنى هذا البرد القارس بك فى عاصمة النور تجاهد كى تجرى الدماء فى عروقك ، فلعلك استرجعت يومًا من أيام مصر والعزبة وجولتنا فى حقول القطن تحت شمس الشتاء العذبة ، ورحلاتنا لصيد البط فى الفيوم .. لشد ما أحببت هذا البلد ولشد ما أساء معاملتى .. لكنى لن أطيل الكلام على كل حال لأن بعض الخطابات يُفتح ، وخلافاتى مع حكومة العسكر كثيرة فلا داعى لأن نزيد الطين بلة ..

انتقلت منذ بداية الشهر الحالى إلى الفيلا التى فرغوا من بنائها ، وهى نسخة من الرسم الذى صممته للمهندس وأحسبها جميلة جداً. طلبت من (سلامة) الطاهى الوفى الذى صار رفيق عمرى أن يجد من يحسن زرع الحديقة ، كما طلبت أن يجد لنا امرأة تعنى بنظافة المكان . إن (سلامة) يعرف ويجيد كل شيء ، وإننى أجد الحياة مستحيلة من دونه . أنا الذى لم أتعامل مع بائع أو حرفى قط .

جلبت معى إلى الفيلا الكثير من الأشياء المهمة والتى تعنى لنا الكثير. حتى الصور المعلقة فى غرفتى جلبتها وحتى الجراموفون القديم وتلك الكتب التى كنت أحتفظ بها لأقرأها فى شيخوختي. كنت أتوق لقراءة (فولتير) و(راسين) .. كنت أتمنى أن أطالع كتاب (الأغانى) .. كنت أتمنى أن أجود لغتى الإنجليزية التى التهمتها اللغة الفرنسية ، حتى ضبطت نفسى أكثر من مرة أحلم وأفكر بالفرنسية !

كنت أحلم بأن أقرض الكثير من الشعر لأتقنه .. إننى أكتب شعرًا يبدو للناس جيدًا لكنى أتذوق الشعر جيدًا وأدرك أنه سيئ هزيل . أعرف أن هذه التصرفات أقرب إلى تمهيد لموت ، وأن من يتصرف بهذه الطريقة يستعجل نهايته ، لكنى أستشعر النهاية قريبة وأفكر كم كانت الحياة جميلة يومًا ، فلو أعطيت أى شيء لعدت إلى ذلك الزمن القديم حينما كنا نمضى إجازة الشتاء فى (سان موريتز) والصيف فى (نيس) ، وحينما كانت الحسان يحطن بى فلا تتبين أين أنا ، حينما كنا ندعى إلى السراى لحفل هنا أو هناك ، أو نذهب لحفل (أم كلثوم) حيث رجال الدولة جميعًا موجودون.

لكنى أحمد الله على أنهم تركوا لى مالاً يكفى كى أقضى بقية أيامى فى هذه الفيلا .. مكان هادئ مريح يصلح كى يتأمل المرء فيه.

سأكتب لك أى (رامز) ولا أطلب ردًا .. فقط زر مباهج (باريس) من أجلى وذكرها بى .

كامل

★ ★ ★

القاهرة فى ٢٨ نوفمبر ١٩٥٩ :

أخى (رامز) :

اكتشاف مثير للغاية وجدته وأنا أتفقد القبو .. أنت تعرف أن المكان جديد وقد نقلت له كل حاجياتى إلا بضعة أشياء لم أرد التخلص منها ولم أرد كذلك أن أزحم بها حياتى الجديدة .. بينما أنا أضع حاجياتى مع (سلامة) وجدت صندوقًا من ورق امتلأ بالكتب وهو ما بدا لى غريبًا فى هذا المكان حديث البناء حيث لا يوجد شيء على الإطلاق .. فقط بعض أجولة الأسمنت الفارغة وبعض البلاط الذى لم يثبت مع رائحة أسمنت قوية .. كان هذا المكان يستخدم مخزنًا لعمال البناء .. لا أكثر .. مددت يدى أحاول رفع الصندوق من موضعه فوجدته ملتصقًا بالأرضية حتى اضطرت لتمزيق قاعه ..

على الأرض انتثرت كتب .. كتب عجيبة قيمة بشدة .. قرأت عناوين مثل Malleus Maleficarum و Cabala و Secret Doctrine ..

هناك كتب مصفرة من التى يبتاعها هواة كتب التراث .. وهناك خرائط عليها رسوم معقدة تظهر الأبراج أو منازل النجوم .

لا أعرف معنى هذا لكنها بالتأكيد مكتبة شخص مهتم بالسحر أو مشعوذ أو عراف .. لقد نقلت هذه الكتب لأضمها لمكتبتى ، وقضيت الليل أطالع النصوص العربية ، لكنى لم أستطع قراءة اللغة التى كتبت بها الكتب الباقية .. بعضها بالإنجليزية وهى عندى هزيلة ، وبعضها بلغة أعتقد أنها اللاتينية ..

قضيت مع هذه الكتب عدة أيام .. كنت ألتهم طعامى ثم أختلى بنفسى فى مكتبى وأقرأ .. ومع الوقت صار لدى يقين تام بأن هذه الكتب تنتمى لساحر أو مشعوذ .. لماذا تركها هنا ؟ لعله كان يريد أن يداريها ، والفيلا ظلت مكانًا عامًا مشاعًا لفترة طويلة لا يحرسها إلا خفير غافٍ .. يمكن لأىّ كائن أن يتوارى فيها ويخفى ما يريد.

استعنت بقواميس اللغة الإنجليزية لأقرأ ما كتب بهذه اللغة ، أما اللاتينية فأنت تعرفها وتعرف أن تعلمها عسير . لكنى وجدت هدفًا لحياتى وقد بددت هذه الكتب غيوم الوحدة التى خنقتنى .. لا أعرف إن كانت قراءة هذه الكتب عملاً آثمًا لكنى أقرؤها لمجرد التسلية وليست لدى نية للتجربة. أعتقد أن القراءة عن المجرمين لا تجعلك منهم.

هكذا تمضى أيامى بين التهام وجبات وقراءة ونوم .. لا أخرج إلا ساعة فى كل يوم حتى لا تخنق الظلال والأضواء بصيرتى .

كيف الحال عندك ؟ أرجو ان تكون بخير. سلامى لأولادك (هالى) و(فكرى) و(سارة) وأدعو الله أن يكونوا لم ينسوا العربية بعد .

كامل

★ ★ ★

القاهرة فى ٢ يناير ١٩٦٠ :

أخى (رامز) :

كنت أفحص القبو عندما قررت أن أنزع تلك البقايا الملتصقة بالأرض والتى نسيت أمرها .. أنت تعرف أننى لا أستعمل القبو أبدًا لهذا نسيت أمر هذه الكتب التى وجدتها هناك منذ شهرين . لكنى نزلت إلى القبو وحدى وأضأت النور ورحت أزيح كل هذا الركام الذى جئت به .. هنا وجدت بقايا الصندوق الذى وجدت فيه الكتب .. حاولت أن أنتزعه فلم أستطع وأثار هذا دهشتي. عندما دققت النظر بدأت أفهم أن الصندوق كان محشورًا فى فتحة فى أرضية القبو .. فتحة تبدو كأنها

صنعت لتصريف المجارى وأنت تعرف أن العمال يسدون هذه الفتحات كى لا يسقط فيها شىء .

قضيت بعض الوقت أحاول تنظيف البقايا المحشورة ، واضطررت إلى إحضار بعض الماء لأذيب بقايا الصندوق الورقية هذه .. لدهشتى وجدت أن الماء تسرب لأسفل . كما كانوا يسكبون دلاء الماء فى السجون لاستكشاف الأنفاق السرية التى صنعها المساجين .. هناك تجويف تحت هذا القبو ، وأعتقد أنه مخصص لتصريف المجارى أو (الترنشات) على الأرجح .

لكنى واصلت الكشف عن الفتحة .. لقد كانت مكونة من قضبان حديدية متشابكة تتوسطها فتحة كبيرة نوعًا تسمح بحشر الصندوق كنوع من التمويه.

الإضاءة غير كافية لذا صعدت لأحضر كشافًا وبحثت عن (سلامة) ليساعدنى فوجدته نائمًا فى الحجرة الصغيرة المجاورة للمطبخ ، فلم أرد أن أزعجه.

كانت القضبان الحديدية تشبه فتحة تهوية لذلك العالم السفلى ، وخطر لى أن المنظر يشبه أى شىء فى العالم ما عدا المجارى .. المجارى لا تبدو هكذا ..

مددت يدى أتحسس القضبان .. كل شىء كان جديدًا خاليًا من الصدأ .. لذا أمكننى بسهولة أن أزيح الغطاء ، وعلى ضوء الكشاف رأيت تلك البئر وعلى الجدار سلم معدنى للنزول .

الموضوع كبير إذن ..

هناك قصة ما غريبة وراء هذه الدرجات ....

كنت مغامرًا جريئًا فى شبابى ، ولياقتى ما زالت تسمح لى بالكثير ، لذا قررت أن مغامرة كبرى جاءتنى فى بيتى فمن الحمق ألا أخوضها. هذه الأرض أعرفها ورأيتها مرارًا قبل البناء .. فما الشىء الذى وجده العمال تحتها حتى قرروا أن يخفوه مع إبقاء إمكانية الوصول إليه متاحة ؟.

إننى أسائل نفسى .

* * *

- ٢ -

قلت لـ (مختار) ونحن غارقان فى الغبار فى العلية وسط أشياء لا تعرف إن كانت ثيابًا أم أحذية أم جثثًا متحللة أم غبارًا اختلط بنسيج العنكبوت حتى صار أقرب إلى فئران صغيرة :

ـ « لماذا لا تبيع هذا البيت وينتهى الأمر ؟ »

راح يسعل حتى أوشك على انتزاع رئتيه من مكانهما .. وتمخّط فى منديله وبصق ثم قال :

ـ « لن أتخلى عن فيلا بهذه المواصفات لمجرد أننى وجدت كتاب (الكباب) هذا فى قبوها .. »

ـ « الكابالا .. »

ـ « دعك من أننى لا أجد أى رابط بين حالة (رانية) وهذا الذى يحدث .. »

بين الغبار والأشياء الغامضة كانت زوجة (مختار) تفتش وتنفض وقد تغلبت حاسة سيدة البيت على أى فضول عندها . فلتجد هنا جثث رجال (الإسكندر الأكبر) أو مومياء (فلاد) أو حفرية إنسان (نياندرتال) .. لتجد أى شىء .. المهم أن هذا المكان يجب أن ينظف .. نشيطات كالبراغيث ولديهن

الكثير من هرمون (الثيروكسين) هاته النسوة ، ولهذا يريننا معشر الرجال قطيعًا من الخنازير الكسول ..

قالت وقد سمعت محادثتنا :

ـ « لم يصب (رونى) إلا العين .. إنه الحسد .. هذه الفيلا اللعينة جلبت لنا الحسد معها .. »

طبعًا أنا أؤمن بالحسد .. لكن هذه السيدة الفاضلة تصر على أن العين هى سبب أى شىء يحدث فى العالم ، وكأن الحرب العالمية الثانية نشبت لأن هناك من حسد (تشيكوسلوفاكيا) على جمالها ..

ثم أضافت وهى تضرب خفين وجدتهما ببعضهما محدثة عاصفة ترابية مرعبة :

ـ « قولا ما تريدان أما أنا سأتصرف .. إن (فتحية) صديقتى أخبرتنى بشيخ بارع فى هذه الأمور .. »

عندما تتحدث عن شيخ لا تتحدث عن شيخ بالمعنى الذى نفهمه نحن .. بل تتحدث عن النسخة العربية من (طارد الأرواح الشريرة)...

قلت فى تحفظ :

ـ « لا أدرى يا سيدتى .. إن النصابين وسط هؤلاء كثير جدًا .. »

ـ « (فتحية) قالت إنه ليس نصابًا وأنا أثق بـ (فتحية) .. »

وفجأة توقفت وأخرجت وسط الركام شيئًا يبدو كأنه صورة موضوعة فى إطار .. وقالت فى حيرة :

ـ « ما هذا ؟ »

قلت فى ذكاء :

ـ « هذا ؟ يبدو أنها صورة موضوعة فى إطار .. »

لكنا رفعنا الصورة فى الضوء فوجدنا أنها خارطة .. تصميم هندسى متقن يظهر الفيلا من منظور (عين الطائر) الشهير .. واضح أنه من عمل مهندس معمارى مع كل هذه الدقة وتسمية المناور باسم (سماوى) وما إلى ذلك من لمسات .. الورق مصفر جدًا فلابد أن من وضع هذه الصورة فى إطار وراء زجاج هو (البدراوى) نفسه .. كانت هناك أرقام على كل جزء من التصميم .. ١ .. ٦ .. ١٣ .. ١٨ .. إلخ .. لا أعرف فنون الرسم الهندسى فربما كان هذا الاستخدام شائعًا ، لكن ما أثار دهشتى هو أن هناك أكثر من رقم فى كل غرفة ..

قلت لـ (مختار) وأنا أناوله هذه اللوحة :

ـ « سوف يسعد المشترى الجديد عندما يجد أن هذه معك .. من المستحيل فى مصر أن تجد الرسوم الهندسية لأية بناية تجاوز عمرها عشرين عامًا .. »

ـ « لن أبيع !! »

قالها فى عناد وهو يسعل من جديد .. ثم أعلن أنه اكتفى من الغبار .. لو أنه استنشق بذرة لأنبتت فى رئته ، وهو تشبيه مضحك لكنه ليس بعيدًا عن الحقيقة تمامًا كما يعرف أطباء الأمراض الصدرية ..

هكذا نزلنا مع ما فى ذلك من صعوبة بالنسبة لشخص يتحرك بعكاز مثلى ..

* * *

تمضى الحياة وكلنا فى دربها ∴ ونغيب عنها .. والخطى لا تندثر

من قبلنا يمشى الألى جاءوا بنا ∴ من بعدنا يقفى ملايين البشر

فاسمع صرير الريح تبكى حولنا ∴ واسمع صدى الأشباح تعوى فى سقر

تلك المروج الخضر ما كانت لنا ∴ إلا كما الريحان يملك السحر

* * *

الآن أقدم لك الشيخ (أبو ياسين) ..

منذ اللحظة الأولى عرفت أنه لن يخيب ظنى .. لم يكن يلبس أسمالاً كالمجانين ويحمل مبخرة لكنه كان يلبس ثيابًا عصرية .. تلك البدلة الصيفية طويلة الكمين التى يكون لونها زيتيًا دائمًا .. فقط رأيت تلك النظرة فى عينيه فأدركت أنه كاذب .. شممت هذا العطر الثقيل الزيتى فعرفت أنه نصاب ..

راح يتأمل الفيلا فى جشع .. وراحت عيناه تسرحان هنا وهناك .. حتى الزوجة البدينة لم يرحمها بنظراته الكريهة .. وأدركت أنه يحاول تقييم ما يمكن أخذه من كل هذا الثراء ..

ثم جلس جوار فراش (رانية) وطلب أن يشعلوا بعض البخور .. قلت له فى برود :

ـ « ليس من مصلحتها أن تزيد مستوى ثانى أكسيد الكربون فى دمها .. »

نظر لى بعينيه المجنونتين وقال :

ـ « هل الأخ طبيب ؟ »

قلت فى كبرياء :

ـ « لا .. لكنى أفهم فى هذه الأمور .. »

قال فى مزيج من وقاحة وسخرية :

ـ « إذن لو سمحت .. إن عندى واجبًا تجاه هذه الصبية .. »

كان قد خمن أننى طبيب كما هو واضح ، لكن هذا زاده تعاليًا .. لقد فشل الأطباء بعلمهم فى عمل شىء .. وطلبونى أنا .. إذن فليتنحوا ويفسحوا المجال للعلم الحقيقى ..

وضع يده طويلة الأظفار على قنطرة أنف (رانيـة) وضغط وتمتم بأشياء أنا واثق من أنها ليست قرآنـا .. كان صوت القرآن منبعثًا كالعادة من الكاسيت جوار الفراش فقلت بلهجة من يريد أن يتعلم :

ـ « أعتقد أن سماع سورة (الغاشية) يفيدها .. »

هز رأسه فى حكمة وقال :

ـ « نعم .. نعم .. هذا تصرف حكيم »

طبعًا كان الكاسيت يذيع سورة (مريم) .. لا يمكن أن تخلط بين السورتين لو كان لديك أدنى علم بالقرآن الكريم .. ولا يوجد طفل فى الصف الثالث الابتدائى لا يحفظ سورة (الغاشية)..

على أننى قلت لنفسى : لكن .. ربما كان منهمكًا بالحالة فلم يلحظ هذا الشرك الصغير .. فلننتظر قليلاً..

أخرج منديله المحلاوى العملاق الذى يصلح خيمـة ، ومسح به عرقه .. ما هذا الذى سقط منه؟

أعاد المنديل لجيبه وراح يتأمل وجه (رانية) وقد بدت على وجهه حكمة القرون .. لا بد أن هذه النظرة لم تظهر إلا على وجه (ابن سينا) وهـو يفحص مريضًا بالتيفوس أو (إنريكو فيرمى) وهو يحسب قوة الانفجار النـووى التجريبى فى (لوس آلاموس) ..

(مختـار) وزوجتـه يقفـان متوتريـن خـائفين وراغبـا بانتظار (كلمة العلم) ..

بعد هنيهة قال الرجل وهو موشك على البكاء :

ـ « هذه البائسة .. لقد اختطفها ملك الجان وهو يريدها زوجة له .. لن يتركها أبدًا .. لا حول ولا قوة إلا بالله »

انفجرت الزوجة فى البكاء ، فقلت فى غيظ :

ـ « ملك الجان هذا مولع بكل الفتيات المصابات بالهستيريا .. ذوقه غريب جدًا »

لم يبال بى وصاح بصوت جهورى :

ـ « آمرك يا (قعقاع) أن تترك هذه الصبية .. هى ليست لك .. ماذا تقول ؟ تشتم ؟ حسن .. آمرك بسلطة سيدنا (سليمان) عليه السلام أن ترحل .. ارحل !... ارحل ! »

دقائق من الصراخ المجنون الذى جعلنا نثب مترين فى الهواء ، ثم بدا عليه الإنهاك وأطرق مسندًا رأسه إلى راحته .. وبعد دقائق أخرى هتف :

ـ « فليخرج الجميع .. (القعقاع) لن يتكلم إلا عندما أكون وحدى .. »

قال (مختار) وهو يقود زوجته نحو الباب :

ـ « هلم يا (رفعت) .. دعه ينفرد بـ (القعقاع) .. »

صعد الدم إلى رأسى .. آخر شىء يمكن أن أفعله هو أن أترك هذا الوغد بلا رقابة فى غرفة يمكن أن يسرق أى شىء فيها ، ومع ابنتى فاقدة الوعى .. نعم .. (رانية) بمثابة ابنتى .. يدهشنى المبلغ الذى يمكن أن تبلغه حماقة الناس..

قلت فى برود :

ـ « يمكنه أن يكلم (القعقاع) فى وجودنا .. لا أعتقد أن ملك الجان خجول لهذا الحد .. »

نظر لى الرجل تلك النظرة الكارهة وقال :

ـ « هل الأخ عالم غيبيات ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « إذن مالك بعملنا ؟ هذه أمور قد تؤذيك يا حبيبى .. من يتعامل مع أمور لا يفهم عنها شيئًا يلق أسوأ مصير .. مصير .. مصير .. إير .. إير .. »

وراح يهز رأسه يمنة ويسرة وينفخ شدقيه على طريقة (إسماعيل يس) ، إلا أنه حين توقف كنت أدس تحت أنفه الشىء الذى سقط منه على الأرض ..

نظر لى أغبى نظرة فى العالم فاستدرت إلى (مختار) ودسست الشىء فى يده .

ـ « هذا الشىء الملفوف بالسيلوفان والذى يضعه العالم العظيم فى جيبه هو (فص أفيون) ! »

كان الرجل مذهولاً لكنه تعود ألا يُفاجأ .. لذا قال فى برود :

ـ « هل الأخ ضابط مخدرات ؟ »

ـ « لا .. »

- « إذن من عينك لتفتش فى جيوب الناس ونواياهم وضمائرهم ؟ »

ومد يده فى لهفة ليأخذ هذا الشىء الذى يمسك به (مختار) ، لكنى صحت فيه :

- « الآن اعتقد أنك ستسمح لى بالشىء الذى كنت أتوق له.. قد أموت بعد دقيقة لكنى سأموت راضيًا باعتبارى حققت حلم حياتى ! »

وأمسكت بالرجل من كم سترته ودفعته دفعًا أو جذبته جذبًا - لا أدرى بالضبط - نحو الباب وأنا أتوكأ على عكازى كواحد من قراصنة الكاريبي .. كان قويًا لكن المفاجأة جعلته واهنًا هشًا .. قلت له وأنا أشير للممرضة كي تتخلص منه :

- « عندما تمارس هذا السخف مع أبوين ملتاعين على ابنتهما ، فأنت تستحق أن تكون حطب جهنم!! »

عندما عدت إلى الزوجة كانت تنظر لى فى ذعر باعتبارى اقترفت إلحادًا خارقًا .. لم يجسر أحد على طرد الشيخ (أبو ياسين) من قبل فضلاً عن لمسه .. باستثناء لثم يديه طبعًا .. وقد أبدت رأيها فى أن (الأفيون) لم يكن أفيونًا بل هو على الأرجح مادة مهمة لطرد الجان .. دعك من أنها تؤمن يقينًا أننى انتهيت وسوف أتحول إلى غبار كونى خلال ثوان ..

- « عندها أكون قد استرحت من الغباء والأغبياء .. سيكون هذا رائعًا .. »

- « لكن فتحية .. »

- « دعك من (فتحية) .. لو كانت ترغب فى أن تتزوجه هو أو (القعقاع) فلتفعل .. »

عقد (مختار) ذراعيه على صدره وقال مفكرًا :

- « لكننا لم نصل لشىء .. هذا الرجل على الأقل كان يمنحنا بعض الأمل .. »

هذه هى المشكلة فعلاً وقد عبر عنها بدقة تامة .. الأمل الخادع الزائف أم اليأس الحقيقى الصادق ؟

أنا أعرف جيدًا ما لا يصلح لـ (رانية) لكن لا فكرة عندى عما يصلح لها ..

لا بد من حل ما فى مكان ما ..

★ ★ ★

- ٣ -

(من مجموعة خطابات وجدوها فى وقت متأخر جداً) :

القاهرة فى ٣ يناير ١٩٦٠ :

أخى (رامز) :

بدأت أهبط تلك الدرجات .. ومع كل درجة كنت أتردد أكثر لأن الظلام صار دامسًا لولا الكشاف الذى أطبق عليه فى فمى .. كان له مذاق مثير للغثيان حتى تمنيت لو أن عندى خوذة تضىء كالتى يلبسها عمال المناجم ..

لكن الأمر لم يطل فهأنذا أقف فى قاع البئر .. أمامى ممر طويل مظلم .. إذن أنا فى مكان ما مجهول تحت الفيلا التى أعيش فيها ، وهو مكان لا يمت بصلة للمجارى أو الصرف الصحى .. نفق سرى ربما لا يعرف أمره سواى .. هناك فتحة جانبية تقود لهذا البئر لكنها ضيقة ولا أعرف إلام تقود..

كان هذا غريبًا ، لكنى تماسكت وقررت أن أجوب هذا النفق حتى نهايته. أنت تعرف تلك القصور الغامضة التى تعيش الثعابين فى قبوها ، لهذا لم أكن متفائلاً كثيرًا بالمشى فى هذا النفق .. لكنى مشيت .. بقعة ضوء تتحرك للأمام والظلام ينفتح أمامها وينغلق من خلفها.

أعتقد أننى مشيت نحو عشر دقائق حتى بدأت أفكر فى العودة ، لكنى وجدت أن المكان يتسع أكثر فأكثر ..

نظرت للسقف فوجدت جذور نباتات تمتد من أعلى كمخالب .. أنا تحت الأرض بالمعنى الحرفى للكلمة .. ربما أنا أسفل مجموعة أشجار وإن كنت عاجزًا عن تحديد مكانى لأن هذا يحتاج إلى بوصلة وخارطة ..

فى وجهى وجدت بوابة من قضبان تساعد على إضفاء صورة الجب على المكان ، فمددت يدى وأزحتها .. هذه المرة انفتحت بصرير وصعوبة بالغين ..

وقفت فى ذلك المكان المتسع أنظر حولى..

لا أفهم أين أنا .. أقرب شىء للمكان هو كهف ضخم لكن سقفه لم يكن مليئًا بالهوابط ، بل كان عبارة عن جذور نباتات ملتفة غليظة ..

ثم سمعت صوتهم ..

بالأحرى شعرت ببرد شديد ينبعث منهم ..

بالأحرى رأيتهم ..

ومنذ هذه اللحظة عرفت أن حياتى لن تظل أبدًا كما كانت وأننى لن أعود نفسى .

كانوا هناك .. لا يمكنك أن تعرف عددهم أبدًا لأنهم يذوبون ويكثرون وينقصون فى اللحظة ذاتها .. كيف يبدون ؟ هذا سؤال عسير .. فى لحظة هم بشر مثلنا وفى لحظة هم شياطين وفى لحظة هم ألسنة من لهب ..

وقفت حيث أنا أرتجف عاجزًا عن الكلام أو التراجع أو قول شىء .. سقط الكشاف من يدى فالتصقت بالجدار ورحت أردد آيات قرآنية وقد أدركت أننى وقعت فى الشرك ..

(« بشرى بيننا »)

سمعت هذه العبارة لكنها لم تدو ولم يقلها أحد .. أعتقد أنها فكرة غرست نفسها فى عقلى .. وفى هذه اللحظة فهمت أنهم مضيئون فى حد ذاتهم ، ولون ضوئهم أخضر ..

شعرت بهم يلتفون حولى .. وسمعت من يفكر قائلاً :

(« إنه حليف »)

حليف ؟ كيف يكون ذلك ؟

وشعرت بتلك الأطراف الباردة التى لا تعرف إن كانت موجودة أم لا تقودنى معها ..

كان هناك عرش كبير من نار .. نار ملتهبة يتطاير منها الشرر لكنها اتخذت شكل مقعد شامخ .. نعم مقعد .. فوقه

يجلس كائن أضخم من كل هذه الكائنات .. ومن جديد لا شكل له .. لكن له ملامح آدمية تتغير من ثانية لأخرى ..

فكرة تدوى من أحدهم :

(« بشرى بيننا يا (أفسيس) »)

لمحت عينيه الرهيبتين تتجهان نحوى ، ثم سمعت أفكاره :

(« إنه حليف ..فدعوه »)

هل تعتقد أننى أهذى يا (رامز) ؟ لا ألومك كثيرًا .. لقد تقدمت فى السن ولو حكى لى أحدهم هذا الكلام لاتهمته بالخرف ، لكنى آمل أن تصدقنى .. لم أفقد حواسى بعد وقد رأيت وسمعت وشممت ، فإن كانت الأوهام بهذه الدقة والقوة فما هى الحقيقة إذن ؟ ماذا يبرهن على أننا موجودون وأحياء ؟

قال لى (أفسيس) أو بالأحرى فكر :

(« أنت فى مملكتنا .. لا تجهد عقلك بمعرفة كنهنا .. ربما يدعونا بعضكم شياطين وربما يعتبروننا تجسدات وربما نحن شىء لا اسم له .. فقط فاعلم أنك فى مملكتنا وقد قبلناك بيننا لأننا بحاجة إلى أرضى يكون عونًا لنا .. »)

فتحت فمى لأتكلم فتطاير الشرر منه صانعًا ما يشبه إصبعًا محذرًا وقال :

(« حذار ! لا أحد يجادل فى كلمات (أفسيس) .. إنها هى القانون ! »)

صاح أحدهم :

(« كلمات (أفسيس) هى القانون »)

سأكمل لك القصة فى خطابى التالى يا (رامز) لأن أصابعى ترتجف ورأسى يتأرجح ..

كامل

* * *

القاهرة فى ١٠ يناير ١٩٦٠ :

أخى (رامز) :

صاح أحدهم :

(« نحن بحاجة إلى أطفال رضع ! فليجلب لنا الأطفال ! »)

وصاح آخر :

(« ونحن بحاجة إلى دم عذارى .. فليجلب لنا الدماء ! »)

كنت فى حالة لا توصف من الرعب .. وأعتقد أننى فقدت وعيى بضع ثوان لأنى أفقت وأنا على الأرض .. ومددت يدى فاصطدمت بشىء صلب .. كانت هذه عظمة زند متحللة .. مددت يدى أبعد فاصطدمت بجمجمة آدمية مغروسة فى الغبار ..

كانت هناك بقايا قماش ممزقة وقطع من عظام يد .. رفعت عينى لأعلى ونظرت إلى السقف .. الآن أفهم.. أنا فى قبر ! هؤلاء القوم يعيشون فى قبر تحت الأرض .. هذا بيتهم ..

نهضت لأرى ذلك المدعو (أفسيس) ينظر لى فى ثبات .. له عين حمراء تتضخم وتصغر من حين لآخر ..

قال لى :

(« من المفيد أن تكون حليفنا .. سوف نعلمك أشياء لا حصر لها ، وسوف تملك قوة لم تحلم بها ، لكن عليك أن تتذكر العهد .. لن تلفظ حرفًا عنا لمخلوق سواك .. إن انتقامنا يمتد لعدة أجيال ، ولسوف تلحق لعنتنا بأحفاد أحفاد جدودك ما دمت لا تملك ابنا »)

وفجأة شعرت بمخلب ينغرس فى لحم ساعدى وبدأ الدم يسيل على الأرض .. وفوق الغبار رأيت الدم يرسم كلمات .. كلمات بلغة لا أعرفها لكنى فهمت أن هذا هو العهد ...

وفجأة بدأت تلك الأطياف ترقص وتتواثب من حولى .. وخيل لى أننى أسمع دقات طبول لا تتوقف .. إنهم يحتفلون بى كما فهمت ..

(« سوف تعود لدارك الأرضية ، لكننا ننتظرك مساء السبت .. وسوف نطلب منك أشياء ونمنحك أشياء فامتثل .. »)

وشعرت بأن الدائرة تنفتح من حولى ، ثم وجدت الكشاف فى يدى فعدت مترنحًا أغادر هذا المكان الرهيب .. إلى النفق ثم البئر ثم الدرجات ..

وعندما وجدت أننى فى قبو دارى تمددت على الأرض ورحت أنشج .. أنشج من التوتر والانفعال والرعب وفرحة النجاة ..

ثم فارقت الوعى ....

* * *

ـ ٤ ـ

(من مجموعة خطابات وجدوها فى وقت متأخر جدًا) :

القاهرة فى ٢٠ يناير ١٩٦٠ :

أخى (رامز) :

اندمجت حياتى مع تلك الكائنات وصار يومى رهينًا بحق .. أمضى الوقت فى دارى فى قراءة تلك الكتب المخيفة فى غرفة مكتبى ، فإذا جاء موعدى الأسبوعى انتظرت حتى ينام (سلامة) ثم نزلت إلى القبو لأبدأ تلك الرحلة تحت الأرض..

من أين جاءوا ؟ من الذى وضع هذه الفتحة التى سدتها كتب السحر فى القبو ؟ هذه أسئلة لا تلقى إجابة عنها لأنهم لا يجيبون عندما يُسألون .. لكنى قدرت أن العمال الذين شيدوا الفيلا لا يعرفون شيئًا عن هذا النفق على الأرجح من صنع الفتحة واحد من هذه الكائنات .. والأكثر رجحانًا أنه بشرى جعلوه خادمًا لهم كما حدث معى .. بنى الفتحة ووضع عليها ذلك الغطاء ذا القضبان ، ثم سدها بتلك الكتب ليخفى أمرها ..

كنت أفكر فيك يا (رامز) .. أفكر فى (هانى) و(فكرى) و(سارة) وأفكر فى أختى (جمانة) وابنتها (رويدا) .. أنت

في باريس وهي في لندن .. لم أحب أحدًا في حياتي كما أحببتكم وقد كنت أرتجف خوفًا عليكم .. آخر ما أتمناه أن تهبط كارثة عليكم وأنتم لا تعرفون الذنب الذي اقترفتموه ..

(« إن انتقامنا يمتد لعدة أجيال ، ولسوف تلحق لعنتنا بأحفاد أحفاد جدودك ما دمت لا تملك ابنا »)

هذا ما قالوه .. من قال إن الرجل الذي لم يتزوج ولم ينجب حر ؟ كنت أحسب هذا وأخالني الرجل الوحيد الحر في هذا العالم .. لكني نسيت الحقيقة .. أنتم موجودون وتقيدونني بشدة .. الآن وقد رأيت ما رأيته أعرف يقينًا أنهم قادرون على أن يؤذوا صبيًا في باريس أو صبية في لندن .. الأمر يتجاوز حدود المادة والمسافات ..

ليس بوسعي إلا أن أقبل وأنفذ ما يطلبون مني فلا فكاك ..

من الغريب أنني صرت قادرًا على قراءة اللاتينية وفهمها .. لم أدرس حرفًا من تلك اللغة لكنني فجأة صرت أفهمها ، وهو تغيير طرأ على من التعامل مع تلك الكائنات.

ما كان يحدث في تلك المقبرة الرهيبة تحت أقدام الأحياء أمر لا أستطيع وصفه أو الكلام عنه ..

حفلات صاخبة لا تنتهي .. وطقوس شديدة التعقيد .. أعتقد أن هذه الطقوس كانت وقود هذه الكائنات وطعامها الحقيقي ..

ولم تكن لديهم قوى مادية واضحة .. أي أنهم غير قادرين على اجتلاب شيء من العالم الخارجي إلا بمعونة خادم ..

مثلي ....!

طبعًا لم يكن سني ولا قدراتي مما يسمح لي بأن ألعب دور خادم د. (فرانكنشتاين) الأحدب أو (ليبوريللو) خادم (دون خوان) الدنيء .. لكنهم كانوا يطلبون طلبات معقولة أو ممكنة .. وقد توصلت لحيلة ممتازة تعطيني حرية الحركة ..

لقد بدأت أدس بعض المنوم لـ (سلامة)..

كان يأكل طعامه بعد ما أفرغ أنا ، لذا رحت أتسلل إلى المطبخ لأسكب أقراصًا منومة في بقايا الطعام التي أعرف أنه سيأكلها بمجرد أن يخلي المائدة .. هكذا يغفو كقطعة حجر ، من ثم أدخل غرفته وأنتقي بعضًا من ثيابه .. الجلباب والشال الذي يلف على الرأس .. ثم أغادر الفيلا للقيام بالحصول على ما يريدون ..

والسبب هو أن الجميع يعرفني ويعرف متى أغادر الفيلا للتريض .. من شأن خروجي المتكرر أن يثير أسئلة الفضوليين ، بينما لم يكن أحد يبالي بخروج (سلامة) أو عودته ..

كنت أشتري لهم أشياء غريبة .. يطلبون أشياء معينة لا تجدها إلا عند العطار أو في المجزر .. وكنت أنزل لهم بما

حملت فأقف ذاهلاً أرمقهم وهم يلتفون حول ما حملت ثم يتقاسمونه .. بينما (أفسيس) زعيمهم يصيح بصوته الفكرى الغريب :

(« تذكر عهد الدم أيها الأرضى ! »)

إن الأفكار بضاعتهم وحياتهم فلا أحسبهم بحاجة إلا كلمات أؤكد بها أنى لم ولن أتكلم ..

سأتركك الآن وسوف أحكى بقية القصة فى خطاب آخر.

كامل

★ ★ ★

القاهرة فى ١٠ يونيو ١٩٦٥ :

أخى (رامز) :

لم أكتب لك منذ زمن .. لكنك لا تكتب لى على الإطلاق حتى صرت أتساءل إن كانت هذه الخطابات تصلك أصلاً أو تبالى بها ..

مياه كثيرة جرت تحت الجسور فى هذه الأعوام (كما يقول الغربيون). هناك اعترافات أخجل من مجرد التفكير فيها .. لقد قمت لهذه الكائنات بخدمات عديدة ليس أقلها تعبئة عشرات

الزجاجات بالدم من (السلخانة) .. جعلت (سلامة) يجمع لى كل زجاجة يجدها وأقنعته أننى غريب الأطوار ممن يجمعون أشياء غريبة ..

الحق أن ملامحى وطباعى تبدلت فعلاً .. لم أعد أنا .. أعترف أن تلك النظرة الغريبة السوداء صارت لا تفارق وجهى .. (سلامة) تقدم فى العمر ولا يلاحظ أشياء كهذه ..

ذات يوم طلب منى(« أفسيس ») امرأة شابة .. كنت أتوقع طلبًا كهذا .. لا توجد طقوس شيطانية من دون دم امرأة شابة .. إن طقوس (القداس الأسود Black mass) صارت شيئًا أعرفه جيدًا .. لكن كيف أتحايل على هذا الأمر ؟ يبدو أن شبح خادم (فرانكنشتاين) الأحدب يطاردنى بعنف ..

قضيت أسبوعًا فى كوابيس لا تنقطع .. ألعن مأزق وجدت فيه نفسى .. فكرت مرارًا فى الانتحار لكن العبارة المخيفة ظلت تطاردنى :

(إن انتقامنا يمتد لعدة أجيال ، ولسوف تلحق لعنتنا بأحفاد أحفاد جدودك ما دمت لا تملك ابنا ») لاحظ (سلامة) أننى صرت أكثر قلقًا وحاول بإخلاصه المعهود أن يعرف السبب ، لكنى لم أتكلم طبعًا ، وفى النهاية فوجئ بأننى أطلب منه أن يأخذ إجازة ويزور قريته ..

ظللت وحدى فى البيت أفكر .. لقد جاء يوم السبت وعلى أن أنزل لأقول لهؤلاء : ـ « لم أحضر معى ما أردتم .. فلتفعلوا ما تريدون »

كنت جالسًا فى مكتبى ظهر ذلك اليوم ، عندما دق الباب ..

ـ « هل تسمح لى بتنظيف المكتب يا (كامل) بك ؟ »

كان هذا صوت (محاسن) .. المرأة الريفية التى تنظف البيت هنا وتبتاع بعض الأشياء من السوق .. هى ليست شابة تمامًا .. لكنها تصلح بالتأكيد ..

وقفت على باب الحجرة وتركتها ترتب الأوراق على مكتبى ، وسألتها من دون أن أنظر إلى الخلف :

ـ « هل أنت متزوجة يا (محاسن) ؟ »

ـ « توفى منذ أعوام .. »

ـ « وأولادك ؟ »

ـ « لم أنجب .. »

لم أتبادل معها الحوار قط .. لهذا شعرت بدهشة لكنى واصلت الأسئلة :

ـ « أين تعيشين ؟ »

عزبة قريبة هى .. وكانت المرأة قد قررت أن ترثى لنفسها فراحت تحكى لى كيف أن أحدًا لا يشعر بوجودها ولا أحد يبالى إن كانت قد راحت أو جاءت .. كنت أزداد سرورًا وهى تحكى لى هذا كله .. أعتقد أنها بدأت تشعر بدهشة ما ، ولعل تلك الخواطر عن الأثرياء المسنين غريبى الأطوار الذين يتزوجون خادماتهم قد داعبت مخيلتها ..

قلت لها دون أن أنظر للخلف :

ـ « هناك مهمة صعبة لكنى سوف أدفع لك جيدًا .. فقط تعالى لأريك ما أريد .. »

ـ « على عينى .. »

وهكذا ذهبنا إلى القبو ففتحت تلك الفتحة فى القاع على ضوء كشاف .. رأيتها تنظر لى فى حيرة ورعب فقلت :

ـ « هذا ممر سرى لا يعرفه إلا من أثق فيه .. لى غرفة سرية هنا لكنى أرغب فى أن تنظفيها لى .. لاحظى أننى لا أطلع أحدًا على سر كهذا .. »

ونزلت على الدرجات دون أن أنظر لأعلى حتى لا تخوننى نظراتى .. ما إن نزلت حتى رأيتها تنزل لاحقة بى ..

ـ « المكان مخيف يا بك .. »

ـ « لهذا هو سرى .. »

ومشيت معها فى الممر الطويل .. كنت أرتجف خوفًا وانفعالاً .. كنت أكره نفسى بعنف لكنى لم أر بديلاً آخر .. وصلنا إلى الباب ذى القضبان الذى يسد نهاية الممر ففتحته وطلبت منها أن تدخل .. نظرت لى نظرة أخيرة هى مزيج من الخوف والترقب .. لكنها قدرت أننى رجل موثوق به دعك من أنها أقوى وأعفى منى .. يمكنها أن تحطم عنقى بكفها لو أرادت ..

اجتازت المدخل وفى اللحظة التالية سمعتُ صوت الجنزير . الجنزير الذى ابتعته لأغلق به هذه البوابة .. أمسكتْ بالقضبان كأنها سجين فى قبو وصاحت :

ـ « افتح يا (كامل) بك .. »

لكنى كنت أجد السير مبتعدًا عائدًا من حيث أتيت ..

ـ « افتح !! يا (كامل) بك ! »

على ضوء الكشاف أصل لنهاية النفق فقاع البئر وأتسلق ..

ـ « افتح يا (كامل) بك .. آه ه ه ه ه ! »

الآن أعتقد أنها رأتهم .. لا بد أنها اعتقدت أنها تهلوس .. سوف تحتاج لوقت أطول من اللازم كى تستوعب منظر

(أفسيس) الرهيب .. سوف تستغرق وقتًا أطول من اللازم كى تدرك أنها سجينة وحدها تحت الأرض مع هذه الكائنات ..

لقد أتممت مهمتى .. فقط يجب أن أعود وأبتلع أقراصًا مهدئة لأنسى هذا كله ..

لقد قمت بمهمة عسيرة . مهمة قذرة .. وفى تاريخ حياتى سوف يظل هذا التاريخ مهمًا باعتباره علامة أساسية فى طريق الانحدار لأسفل الذى بدأته منذ وقعت ذلك العهد ..

أسمع صراخها .. هذه المرة كانت صرخات استغاثة .. لم تكن تنادينى ..

لا بد أنهم يحملونها إلى المذبح الحجرى الذى يتوسط المكان ..

رحت أتسلق مسرعًا ..

فلما صرت فى القبو فعلت الشىء الذى صار عادة مزمنة عندى ..

سقطت فاقد الوعى .....

* * *

ـ ٥ ـ

لم أكن موجودًا عندما اندلعت صرخات (عواطف) الممرضة التى تعنى بـ (رانية) فى غيبوبتها ..

عندما سمع الأبوان هذا كان أول ما خطر لهما شىء واحد .. الأم شعرت بألم فى صدرها واختلت ضربات قلبها ، فخارت قواها وعادت تتهاوى على مقعدها ، والابن وقف فى حيرة بلهاء عاجزًا عن الكلام .. بينما راح (مختار) يبرهن عن لياقته بأن راح يثب فوق الدرجات صاعدًا .. بعد ثانية كان على باب غرفة النوم وهو يتوقع الأسوأ...

ما رآه لم يكن ما خاف أن يراه ، لكنه كان سيئًا بما يكفى ..

لقد كانت الملاءة مكومة فى ركن الحجرة بينما كل أبواب خزانة الثياب مفتوحة وقد فرغ ما فيها .. ألعن فوضى رآها فى حياته وقد وقف لحظة يستوعب الأمر ..

ركض إلى الفراش وتحسس عنق ابنته وتأكد من أن تنفسها منتظم كأنها نائمة ، ثم نظر إلى (عواطف) التى التصقت بالحائط وهى لا تكف عن الصراخ والعواء..

ـ « هل جننت ؟ لماذا أفرغت كل هذه الثياب ؟ »

صاحت كأنها صفارة إنذار بريطانية فى الحرب العالمية الثانية :

ـ « لم أفعل شيئاااااااااااا !! »

ـ « هل تمزحين ؟ من أخرج كل هذا ؟ »

صاحت وهى تنكمش فى ركن :

ـ « هذه هى المشكلة ! أنا لم أفعل هذا ! فجأة انفتحت خزانة الثياب ووثب كل شىء منهاااااااااا ! »

طبعًا هما ساذجان .. لم يريا كل ما رأيت فى حياتى .. بالنسبة لهما هذه نهاية العالم ، بينما رأيت أنا فصيلة كاملة من أشباح النازيين ، وتعقبتنى مومياوات ، ورأيت الكثير من التحريك عن بعد وحراس الكهوف وعبرت الكثير من الفجوات إلى عوالم أخرى ، ونزلت ضيفًا فى جانب النجوم .. باختصار لا أعتقد أننى قابل للدهشة .. بل صار ما يدهشنى هو ألا تثب الثياب من الخزانة فى وجهك ..

فيما بعد لحقت الأم بهما وهى تمسك صدرها فى حرص كأنها تخشى أن يثب قلبها منه .. عرفت أن الفتاة سليمة .. إذن فليكن أى شىء بعد هذا ..

على كل حال كان من الواضح أن الممرضة صادقة .. إنها متزنة جدًا ولن تقوم ببعثرة الثياب ثم تبدأ فى الصراخ باعتبار هذه فكرتها عن التسلية ..

قالت الأم وهى تلطم خديها :

ـ « هناك (بسم الله الرحمن الرحيم) فى هذه الفيلا .. كنت أعرف هذا .. »

ثم صاحت فى (مختار) البائس :

ـ « لو سمعت كلامى وتركت الشيخ (أبو ياسين) يكمل عمله .. لو سمعت كلامى وبعنا هذه الفيلا (المدعوقة) لأول عابر سبيل .. أقسم بالله أننى مستعدة لبيعها لمن يدفع عشرين جنيهًا .. لا .. لن أفعل ذلك .. سأمنحها هدية لأى متسول يمر من هنا .. »

تغلب عليه طبع التاجر البارع فقال :

ـ « لو قلت هذا لما وجدت مشتريًا .. حتى العشرين جنيهًا لن تجدى من يدفعها .. الطريقة الوحيدة لبيع شىء لا تريدينه هى أن تحددى سعرًا غاليًا يفوق قيمته بمراحل .. عندها سوف ينهال عليك المشترون .. لكنى لا أفكر فى البيع .. »

ـ « متى تفعل ؟ بعد أن تضيع ابنتك ؟ »

ـ « لو كان بيع الفيلا سيجعلها تفيق لفعلت هذا حالاً .. »

ونظر إلى الساعة .. إنها العاشرة مساء ..

وقت مناسب جدًا لاستدعائى .. لماذا لا أتعب إذا كان هذا ممكنًا ؟ هذه مسألة مبدأ كما تعرف .. هكذا اتجه إلى الهاتف ليطلبنى ...

★ ★ ★

ـ « يا (مارى الدموية) .. أنا قتلت أطفالك ! »

★ ★ ★

هذه المرة لم أكن وحدى ..

كان معى شاب رقيق أومن بذكائه وله ذات ملامح (على مصطفى مشرفة) كما تراه فى الصور .. (سليمان الخولى) ..

استغرق (مختار) وقتًا طويلاً كى يفهم من هذا الشاب .. إنه فيزيائى .. هذا كاف جدًا كما يبدو لأن أصطحبه لبيوت الفتيات المصابات بغيبوبة .. لم يكن لديه وقت لفهم هذا الهراء ، والحقيقة أن (مختار) لم يعتبرنى إنسانًا متزنًا فى أية لحظة من حياته .. ربما اعتبرنى طبيبًا بارعًا لأننى أنقذت ابنه من مرض عضال ، لكن من ناحية التعامل الإنسانى لم يكن

ليأتمننى على علبة ثقاب .. كان يؤمن بأننى لا أفهم شيئًا عن الحياة وأننى إذا اشتريت خسرت وإذا بعت بددت .. إن معلوماتى عن العقود وإجراءات التقاضى تشبه معلومات طفل .. إننى لم أتزوج لهذا يبقى نصف الحياة مستغلقًا على فهمى . ولم أنجب فلا يمكن أن أفهم قيمة الأبناء ..

ولأسباب كهذه اعتبر (مختار) أن صديق المخبول مخبول آخر أو ربما معتوه ..

قلت له وأنا أربت على رجل (سليمان) :

ـ « لقد اتصلت بـ (سليمان) كى يقابلنى قبل أن آتى لك .. »

قال (مختار) فى ثبات :

ـ « فهمت .. هذه خدمة لن أنساها .. أنت تعرف كم أن حاجتنا ماسة للفيزيائيين هنا .. »

تجاهلت سخريته ، وسألته عن أحوال مكتب المحاماة فقلب كفه فى إيماءة معروفة معناها (لم تعد لى علاقة به) ثم أضاف :

ـ « لا وقت عندى ولا أمتلك البال الرائق للانتظام .. إن كل شىء يعنى به المحامون المتدربون عندى وأستاذ (هويدى) .. من فضل الله أنه شديد البراعة .. »

ساد الصمت .. ثم جاءت الزوجة حاملة صحفة عليها الشاى وبعض البسكويت .. فتعالى صوت الرشف والقضم .. وفى النهاية قلت بفم ملىء بالبسكويت :

ـ « ألاحظ أن أية مصيبة تحدث هنا تحدث ليلة السبت .. »

تبادلوا النظرات .. بالفعل لم يلحظوا هذا من قبل ..

أردفت :

ـ « لقد أردت أن نكون معًا بينما أشرح ما يدور بذهنى .. نحن نعرف يقينًا أن هناك شيئًا غير معتاد يحدث هنا .. سمّه الأشباح أو القوى النفسية .. لكن .. هل هنا من لا يربط بين غيبوبة (رانية) وهذا الذى يدور مؤخرًا ؟ »

ساد صمت عميق .. حتى الفتى الذى حكيت له القصة فى الطريق ظل صامتًا ..

واصلت الكلام :

ـ « ما يعطى القصة طابعًا خارقًا للطبيعة هو ما يلى :

أولاً : قصة المرآة والوجه الذى ظهر فيها .. أنا رأيت وجهًا كما قلت لكم ، ولا أعتبر نفسى هستيريًا لكن الأمر متروك لكم .. فمن المحال أن يعترف الهستيرى بأنه كذلك ..

ثانيًا : الأشياء التى تتحرك .. واضح أن (رانية) رأت الكثير ، وأنا رأيت مقعدًا يزحف وحده ، والليلة تقول الممرضة إنها رأت ثيابًا تطير ..

ثالثًا : كتب السحر التى وجدناها فى القبو ..

رابعًا : غيبوبة (رانية) التى لا يوجد تفسير واضح لها ..

خامسًا : رسالة الوجه الذى قال لى أن أفتش فى بيت الأشباح .. طبعًا من الواضح أنه يتكلم عن هذا البيت بالذات ..

علينا أن نتناقش لنثبت أن كل هذا هراء .. وكما يقولون فى اللاتينية : Reductio ad absurdum .. أى : (البرهنة على سخف هذه الفرضية) »

قال لى (مختار) وهو يرشف الشاى :

ـ « هل رأيت أشباحًا فى حياتك يا د. (رفعت) ؟ »

قلت فى كياسة :

ـ « لنقل إنى رأيت ظواهر كثيرة لا تفسير لها .. لكن لننس ما رأيته أنا مؤقتًا لأن حياتى سلسلة طويلة من هذه الأمور .. سأترك الكلام لـ (سليمان) .. »

* * *

- ٦ -

ـ « فتش فى بيت الأشباح .. وسوف تهديك الأرقام .. »

ـ « فتش فى بيت الأشباح .. سوف تهديك الأرقام .. »

* * *

ساد الصمت من جديد ثم بدأ (سليمان) يتكلم .. كان من الواضح أنه مرتبك وأنه لم يعتد الخطابة فى مجاميع .. لكنه وضع الطبق والفنجان على ركبته وبدأ يتكلم مستعملاً يديه معًا .. هذا شأن الخجولين عندما يشعرون أن الكلمات لا تطيعهم فيساعدونها بالأيدى :

ـ « الأشباح لغز مستمر من ألغاز ما وراء الطبيعة .. هل هى موجودة ؟ هل من رأوها رأوها حقًا ؟ ثمة مشكلة خطيرة هى أن أكثر الناس لا ترى الأشباح إلا (بالورب) .. وبركن العين .. لا أحد يستطيع النظر إلى الشبح مباشرة ، وهذا جعل العلماء يتذكرون موضوع العصب البصرى والبقعة العمياء .. ربما كانت هذه جميعًا أوهامًا بصرية .. لا توجد قواعد ثابتة تعرفك بظهور الشبح .. هناك من يشعرون ببرد عندما يتواجد شبح فى الغرفة وهناك من يشعرون بـ (شىء ما) .. من جديد تبرز مشكلة علمية أخرى هى أن موجات الصوت الأقل من

٢٠ ميجاهيرتز ترددًا هى (تحت صوتية infrasound) .. معنى هذا أننا لا نسمعها لكنها تشعرنا بوجود (شىء ما) فى الحجرة معنا .. إذن يقدر العلماء على تفسير رؤية الأشباح والإحساس بها .. هناك تفسير علمى آخر هو ظاهرة الموجات الكهرومغناطيسية التى تسبب الهلاوس لسكان البيت .. كل القصور المسكونة تحتها صخور متآكلة ومياه ..الاحتكاك يولد موجات كهرومغناطيسية قادرة على إحداث خلل مؤقت فى العقول ..

ـ « باختصار ينقسم الناس بصدد الأشباح إلى من يؤمنون بأنها فعلاً أشباح .. بينما يؤمن متدينون كثيرون بأن الأشباح لا وجود لها وإنما هى شياطين .. والفريق الثالث يؤمن بأنه لا وجود لها إنما هى ظواهر فيزيائية قابلة للتفسير »

قال (مختار) :

ـ « حدثنا (رفعت) عن الأشباح الصاخبة أو الـ (البورتر زايط) .. »

قال الفتى فى أدب :

ـ « لا بد أنك تعنى (البولترجايشت) .. »

ـ « أى شىء .. لم أفهم بعد معنى هذا الشىء .. هل هو تحريك عن بعد أم هو شبح فعلاً ؟ »

قال (سليمان) وقد بدأ يهدأ نوعًا :

ـ « هناك من يؤمن أن الأشباح بقايا من القوى النفسية لمن ماتوا .. من يمت يترك أظفاره وعظامه وبنفس المنطق يترك قواه النفسية فى مكان الموت .. الموت يعنف يطلق الكثير من القوى النفسية فى المكان .. وهذه القوى تعبر عن نفسها بتحريك الأثاث والدق وهز الفراش .. هذه هى ظاهرة (الغضب المسجل) حيث يموت شخص فى حادث فيترك تجمعًا هائلاً للطاقة فى مكان ما .. ويتكرر تفجر هذه الطاقة كأنك تعيد تده.. شريط التسجيل عدة مرات .. طبعًا علماء كثيرون يقولون إن القصة لا تتجاوز قوى تحريك نفسى لا تعرف الضحية أنها تملكها . »

نظر لى (مختار) نظرة ·ن طراز (نفس – ما – قلته – أنت) .. فهززت رأسى ـ نسمع بقية القصة ..

قلت مكملاً كلام الفتى :

ـ « فى كل الحضارات هناك كلام عن الأشباح .. وفى كل الحضارات هناك تفسيرات عدة لوجودها .. مثلاً فى

الصين قالوا إن الأشباح هى أرواح حرمت من حقها فى التناسخ .. أنتم تعرفون أن تناسخ الأرواح فكرة دينية قوية هناك ، وهمْ يؤمنون أن أرواح الغرقى التى حرمت من التناسخ تهاجم الناس لمنعهم من ممارسة التناسخ وبالتالى تسلبهم هذا الحق لنفسها .. هذا ما يطلقون عليه (شبح كبش الفداء) .. هناك معلومات تفصيلية عن الأشباح فى كتاب (جارودا بورانا Garuda Purana) الهندوسى .. أما عجلة الحياة البوذية (سامسارا Samsara) فتناقش مفهوم الشبح الجائع للوجود .. »

نظر لى (مختار) فى عدم فهم فقلت :

ـ « الشبح الجائع للوجود .. أى إنه لم يشبع من العالم لهذا يفضل أن يبقى فيه .. وفى العقائد القديمة فى العالم الغربى كانوا يعتقدون أن الأشباح تأتى من (لمبو Limbo) وهو مكان بين الجنة والنار .. »

سألنى (مختار) :

ـ « ومم تتكون الأشباح ؟ هل هى هالات نور ؟ »

ـ « لا أحد يعرف .. أحيانًا تبدو الأشباح شفافة بلا كيان مادى ، وهناك قصص عن أناس لمسوا الأشباح أو تعاملوا

معها ماديًا .. كل ما يجمعون عليه هو مصطلح (جبلة خارجية Ectoplasm) وهى المادة الخام التى تتكون منها الأشباح وتترك أجزاء منها عند ظهورها .. سائل لزج يتجمد على الثياب ويتصلب بعدها »

قالت الزوجة وقد فهمت :

ـ « شىء كالمخاط الذى ينزل من الأنف .. هه ؟ »

نظرت لها فى دهشة .. هذا هو ما يطلقون عليه (صمت دهرًا ونطق كفرًا) .. مساهمتها الوحيدة فى الحديث هى الكلام عن المخاط الذى ينزل من الأنوف ..

قلت فى ضيق :

ـ « كالنشاء لو أردنا الدقة .. نعود لكلامنا .. عامة تولع الأشباح بالإقامة فى الأماكن التى عاشت فيها فى حياتها ، وبذات الثياب التى اعتادت ارتداءها فى حياتها .. هناك امرأة صحت من النوم فى (شاتو دو برانجان) فى سويسرا لترى رجلاً يجلس إلى المكتب يكتب .. كان يلبس روبًا طويلاً رسمت عليه أزهار .. وكلما نظرت له مباشرة اختفى .. فيما بعد حكت القصة لزوجها الذى سأل السكان القدامى .. اتضح أنها رأت (فولتير Voltaire) الكاتب الفرنسى العظيم الذى كان يكتب فى هذه الحجرة فى حياته.

- « هناك أماكن تعج بالأشباح منها مسكن القس (بورلى) Borley Rectory فى إنجلترا – وقد شرفت بزيارته – وهناك برج (لندن) حيث شبح (آن بولين) مقطوع الرأس .. وشبح (بيكيت) .. وشبح الملك إدوارد الخامس وشبح (جين جراى) وشبح الرحالة سير (والتر رالى) .. زحام أشباح يشبه أية حافلة عندنا .. ويبدو أنهم يظهرون ويخيفون بعضهم ..

- « ليست كل الأشباح بشرًا .. هناك أشباح حيوانات وأشباح بيوت وأشباح قطارات .. »

سألنى (مختار) الذى راح يفكر فى وسيلة للحصول على مال من هذا الذى أقوله :

- « هل هناك أشباح أغرب ؟ »

- « الكلام كثير عن القرين أو الدوبلجانجر Doppleganger - واضح طبعًا أن المصطلح ألمانى - وهو شبح مخيف لو فكرت فى الأمر .. أن تقابل نفسك .. أنا مررت بهذه التجربة مرارًا لكن لأسباب مختلفة ، إلا أن مقابلة (دوبلجانجر) حقيقى تعنى أنك – لا سمح الله – ستموت قريبًا جدًا ..

- « شبح آخر هو النذير أو Wraith ومعناه أنك تقابل شبحًا يجمد الدم فى عروقك ، ثم تكتشف أن صاحبه حى

وفى مكان آخر بعيد .. على الأرجح يعنى هذا أن صاحبه سيموت قريبًا .. »

ساد صمت طويل .. وفى النهاية قالت الزوجة :

- « فلنغير هذه السيرة (المهيبة) .. إن الدم قد تجمد فى عروقى .. »

قلت لها :

- « لا ألومك .. لكننا اليوم نحاول إثبات إن كانت هناك أشباح فى هذه الفيلا أم لا .. ولهذا طلبت (سليمان) كى يرى ما يمكن عمله .. هذه المرة لن نعتمد على الشيخ (ياسين) وأمثاله ، ولكن سنعتمد على علم الفيزياء .. الفيزياء ولا شىء سواها .. »

★ ★ ★

« يا (مارى الدموية) .. أنا قتلت أطفالك ! »

★ ★ ★

ـ ٧ ـ

(من مجموعة خطابات وجدوها فى وقت متاخر جداً) :

القاهرة فى ١٨ فبراير ١٩٦٩ :

أخى (رامز) :

لم يكن هذا أسوأ ما مر بى .. لقد مرت أعوام عديدة .. توشك عشرة أعوام أن تمر على اللحظة التى نزلت فيها إلى ذلك القبر الرهيب .. ومنذ تلك اللحظة ارتكبت كمًا لا يمكن حصره من الآثام ورأيت أهوالاً لا حصر لها مع هذه الكائنات ..

لكنى فى الوقت ذاته لم أجن شيئًا ولم أزدد قوة .. لقد منحت القدرة على معرفة اللاتينية لكن هذا كان يصب فى مصلحتهم الشخصية فى النهاية .. فيما عدا هذا أنا أتقدم فى العمر وأزداد وهنًا ..

لقد ضحيت بـ (محاسن) البائسة من أجلهم ، وقد جاء رجل شرطة يتحرى عنها .. لكن الأمر لم يتجاوز هذا الحد فهى كما قالت وحيدة فى العالم بلا زوج ولا ولد ولا أحد يسأل عنها .. وقد قال لى رجل الشرطة فى النهاية بلهجته الريفية ، وهو يعبث بشاربه فى ذكاء بوليسى خطر :

ـ « يقال إنها هربت إلى (دلبشان) »

أين (دلبشان) ؟ ولماذا (دلبشان) ؟ ولماذا يهرب الناس لها ؟ وممَ تهرب هذه المرأة ؟ أسئلة لا أعرف إجابتها ولم أهتم بتوجيهها لأننى أعرف أن كل هذا هراء .. أنا الوحيد الذى يعرف أين ذهبت ..

بعد هذا قمت بشىء مماثل مع عامل ممن يبيعون جهدهم لمن يدفع .. واحد من عشرات يحملون (غلقًا) وفأسًا ويبحثون عن أحد يستأجرهم ..طلبت منه أن ينزل إلى البئر لأن هناك عملاً مهمًا .. لا لم أستطع أن أسلمهم (سلامة) .. هذا الوفى لا يستحق نهاية كهذه ..

هذه اعترافات مروعة يا (رامز) .. لم يعد أخوك كما كان .. لكنى يجب أن أخبر بها أحدًا وإلا جننت .. ويبدو لى أنه لا أحد يقرأ هذه الخطابات البتة .. لا أنت ولا الجهات التى كنت أعتقد أنها تراقب بريدى ..

(وإلا جننت) ؟ كم أن هذه العبارة شديدة التفاؤل .. أنا مجنون فعلاً يا أخى ..

لقد كنت معهم ورأيت الكثير مما يفعلون .. يمكنك الآن أن تفهم لماذا يقيمون فى قبر ! عندما ينفتح هذا القبر من الجهة الأخرى وتنزل فيه جثة طازجة ! أنا كنت هناك ورأيتهم يمزقون الأكفان ويلتفون حول الجسد .. سمعت عواءهم ورأيت جنونهم ..

هذه هى المعاناة البشرية الوحيدة التى لا يجدى معها الفرار الأفقى ولا الرأسي .. لو فررت منهم خارج البلاد أو قطعت شرايينى لأفر منهم تحت الأرض فلا جدوى .. سوف يجدونكم أنتم..

أنا البائس الذى يضحى بكل شىء من أجل أقاربه !!

دعك من أننى لم أعد راغبًا البتة فى أن اذهب تحت الأرض .. فأنا أعرف ما سيحدث لى هناك ! ربما كان هذا القبر هو قبر أسرتنا بالذات !

على أننى رغبت فى شىء واحد يعوض لى تلك الحياة الكريهة التى أحياها ..

لقد دنوت من عرش النار الذى يجلس عليه (أفسيس) وقلت له بصوت راجف :

ـ « أنا أرغب فى الشباب .. لو استعدت شبابى لخدمتكم بشكل أفضل .. »

كنت أتوقع أن يمزقنى لأنى تجاسرت .. الحقيقة أنى لم أعد حيًا على كل حال ولم يعد يفصلنى عن فكرة الموت إلا تغيير تشريحى بسيط لا يستحق الذكر ..

قال بصوته الفكرى لمن حوله :

(ـ « البشرى يرغب فى الشباب .. فهل يناله ؟ »)

تعالت الأصوات :

(ـ « لا أحد ينال الخلود .. لا أحد .. »)

قلت وقد ارتعش صوتى خوفًا :

ـ « لا أرغب فى الخلود .. بل أنا زاهد فيه كل الزهد .. لكنى بالتأكيد أحلم بأن أرفع ساقى إلى ذات المستوى الذى كنت أرفعها إليه منذ ثلاثين عاما بدلا من أجرها جرًا .. أن أفرغ مثانتى من دون أن أبلل أرض الحمام بسبب بروستاتا الشيخوخة .. أن أرى ما كنت أراه منذ ثلاثين عامًا .. أن أنام من دون أن أبتلع نصف دستة من الأدوية .. أن آكل ما كنت آكله دون أن تطبق معدتى على روحى .. أنت وعدتنى بالقوة وأنا لم أنلها برغم أنى أخلصت لكم عشر سنوات .. »

فجأة شعرت بأننى أرتفع نحوه كأن هناك من يجذبنى من عنقى .. وللمرة الأولى صرت على بعد سنتيمترات من هذا الوجه الذى يتغير فى كل ثانية لشىء مفزع آخر .. لم تكن خبرة طيبة على الإطلاق..

قال (أفسيس) بصوت كالفحيح يتردد فى مخى :

(ـ « كنا نكذب عليك أيها الأرضى .. نحن نكذب بلا انقطاع .. »)

قلت فى لحظاتى الأخيرة فيما حسبت :

ـ « لكن شاباً قوياً سوف يسدى لكم من الخدمات أضعاف ما يسديه عجوز فان .. »

أطلق سراحى وشعرت به يفكر ...

ومن ركن المقبرة رأيت تلك القنينة الصغيرة ترتفع .. تسبح فى الهواء حتى صارت عند شفتى ، ثم انفتحت .. وعلى شفتى سالت قطرات من سائل له مذاق الصدأ ..

ثم انغلقت القنينة وحلقت مبتعدة ..

(ـ « هذا يمنحك بعض القوة أيها الأرضى .. »)

لم أشعر بشىء .. وقلت لنفسى إن هذا وهم .. دعك من الاشمئزاز من عصير الشياطين هذا .. لكنى عندما عدت لأتسلق درجات السلم ، شعرت بنشاط غير مسبوق .. لا ألم فى الصدر ولا ضيق فى التنفس ..

ثم دخلت الحمام لأتفحص ما حل بى ففوجئت بالوجه الذى طالعنى فى المرآة .. هذا وجه لم أره منذ سنوات .. هناك شعرات سود ظهرت من جديد .. هذه القامة المنتصبة التى حلت محل القامة المحنية السابقة ..

إننى رائع !

إكسير الشباب ! لقد قدم لى إكسير الشباب ..

هؤلاء يعرفون ما يفعلون فعلاً .. يعرفون الكثير ..

* * *

- ٨ -

(من مجموعة خطابات وجدوها فى وقت متاخر جداً) :

القاهرة فى ٣٠ مارس ١٩٦٩ :

أخى (رامز) :

لم يدم هذا التأثير الساحر كثيرًا ..

- « لا أرغب فى الخلود .. بل أنا زاهد فيه كل الزهد .. لكنى بالتأكيد أحلم بأن أرفع ساقى إلي ذات المستوى الذى كنت أرفعها إليه منذ ثلاثين عامًا بدلا من أجرها جرًا .. أن أفرغ مثانتى من دون أن أبلل أرض الحمام بسبب بروستاتا الشيخوخة .. أن أرى ما كنت أراه منذ ثلاثين عامًا .. أن أنام من دون أن أبتلع نصف دستة من الأدوية .. أن آكل ما كنت آكله دون أن تطبق معدتى على روحى » ..

لأيام مارست ذلك الشعور الرائع . لقد تخلصت من آلام الشيخوخة واستعدت الكثير من شبابى .. لقد كنت مرينًا حتى أننى حمدت الله على أن (سلامة) صار واهن البصر لا يرى تقريبًا وإلا لسأل أسئلة .. أسئلة كثيرة جدًا ...

على أننى بعد أسبوع بدأت أدرك أن المفعول مؤقت ، وأننى أعود إلى هيئتى الأولى ..

وفى تلك الفترة راحت فكرة إكسير الشباب هذا تؤرق فكرى طيلة اليوم ..

لقد وجدت الحل .. شعرت بمذاقه على شفتى ثم غاب عنى ..

من الغريب أننى فى تلك الأيام رحت أتذكر شبابى .. التزلج على الثلوج فى (سان موريتز) .. (سيرافين) ضحكتْ وكومتْ الثلج وقذفتْ به فى وجهى ثم انطلقت كالرصاصة تنزلق فوق المنحدر ، وأنا لم أتأخر .. نظفتُ وجهى ثم انطلقت لسابقها .. وسقطنا فوق الثلوج الهشة فنهضتُ وراحت تسبنى بالفرنسية وهى تنفض شعرها الذى له لون سنابل القمح :

- « Tu es totalement fou. Tu es un sac de la saleté »

كيف تكون هناك شتائم فى هذه اللغة الرقيقة ؟ هذه لغة لا تصلح إلا لإنشاد الشعر ..

(باريس) والمشى فى الحى اللاتينى حيث يجلس الفنانون على الأرض يرسمون بالطباشير .. كنت من أوائل من تخلصوا من الطربوش لكن ملامحى الشرقية كانت ظاهرة للعيان ...

سباقى معك على ظهرى جوادين جامحين وسط الحقول بينما أطفال الفلاحين ينظرون لنا فى دهشة .. كأننا بطلان إغريقيان من الأساطير هما مزيج من الجمال والقوة ..

كل هـذه المباهج ضاعت للأبد .. أضاعها العسكر أولاً وأضاعتها السنون ثانية ..

عرفت أن (هانى) ابنك سيذهب إلى كندا .. سيقيم هناك للأبد .. لا تحاول منعـه وتذكر أن عنـده هبة الشباب وهـذا شيء فقدناه للأبد .. أنت لا تستطيع عمل هذا وأنا لا أجسر على ذلك ..

تؤرقنى فكرة الشباب الذى امتلكته أسبوعا ثم ضاع .. أعترف بهذا ..

كامل

* * *

القاهرة فى ١١ إبريل ١٩٧١ :

أخى (رامز) :

أكتب لك هذا الخطاب بمجرد عودتي من الاحتفال الرهيب الذى يقام كل سبت .. لقد فعلت شيئا رهيبًا لا أدرى كيف جرؤت عليه ...

لقد سرقت تلك القنينة التى أرقت نومى منذ ذقت قطـرات منها ..

لقد كنت معهم فى القبر وكـانوا يقيمـون احتفـالاتهم الصاخبة ، لكن السبب هذه المرة هو أن هنـاك جثة جديدة دخلت القبر من فتحته الأرضية ..

كنت أعرف هذه الأعراض .. لقد حدثت فوضى عامة ثم احتشدوا جميعًا حول الجسد كأنهم ذئاب تلتهم فريسة .. من حين لآخر تراهم بالفعل ذئابًا ثم تراهم أقرب إلى صورة الغيلان فى الكتب القديمة ، ثم ترى مجموعة من المسوخ تبدو كالموت على أوراق لعب (التاروت).. المهم أنهم محتشدون وانهم يأكلون بلا انقطاع ..

لم يكن أحد ينظر لى ..

هنا فقط قرت أن الأمـر يستحق المخاطرة .. كانت تلك القنينة توضع على نتوء صخرى فى ركن المكان فاتجهت لأقف جوارها ، ثم مددت يـدى فدسستها فى جيبى وأنـا لا أفارقهم بعينى ..

إنها مخاطرة .. يجب أن أفترض أنهم سيقرءون أفكارى .. سيعرفون ..

لكن هذا لم يحدث لسبب لا أعرفه .. فقط دنا منى (أفسيس) واللحم يتساقط من فمه ، وقال لى بصوته الفكرى :

(« ألن تتذوق معنا هذه الوجبة أيها الأرضى ؟ »)

قلت وأنا أخفض بصرى :

ـ « نعم .. كل شيء إلا هذا .. أرجو أن تسمحوا لى بالرحيل لأن هذا المشهد يسبب لي الدوار .. »

كانوا يعرفون أننى أفقد وعيى بسهولة تامة كلما مارسوا شيئاً من عاداتهم ..

قال وهو يدور من حولى ويرمقنى بعينين من نار :

(« فى المرة القادمة هات لنا نبيذاً .. الكثير منه .. »)

الحقيقة أنهم مولعون بالخمور .. وهى حقيقة لم أكن أعرفها عن الشياطين من قبل ..

هززت رأسى أن نعم وتراجعت للخلف كعادتى .. هنا عاد يقول لى :

(« تذكر عهد الدم أيها الأرضى ! لن تخبر عنا مخلوقاً حتى لو كان ضميرك ! »)

ـ « سأتذكر ذلك .. »

ورحت أركض مبتعداً عبر الممر .. وصعدت الدرجات إلى البئر ..

وفى القبو فطنت إلى ما قمت به .. لن أنجو بفعلتى .. هذه شياطين تشرب الدم وتأكل الموتى فكيف تتخيل يا أحمق أنك تستطيع خداعها وسرقتها ؟

صعدت إلى غرفتى ووقفت أتأمل وجهى فى المرآة ..

أما وقد سقطت الفأس على الرأس فلا أقل من أن أستغل الفرصة التى سنحت لى .. لن أكون كمن يقتل من أجل المال ثم يلقى بما سرقه فى القمامة ..

ثم قررت شيئاً أفضل .. جرعة من هذا الإكسير وأعيد القنينة لهم .. ربما لن يلاحظوا .. ربما .. فقط لا بد من جرعة ..

هكذا مددت يدي وحاولت نزع الغطاء .. إنه أقرب إلى سدادة زجاجية محشورة بعنف فى العنق ..

لا جدوى .. إنه ملتصق تمامًا .. حاولت عدة مرات فلم أستطع .. بينما هى حلقت فى الهواء مفتوحة لتسكب نفسها على شفتى عندما كان (أفسيس) هو صاحب الأمر ..

جربت ساعة كاملة حتى أننى أسخنت بعض الماء ووضعت العنق فى البخار .. لا جدوى ..

طبعًا ليس واردًا أن أحطم عنق القنينة .. لا أجرؤ على هذا ..

هكذا وجدت نفسى فى مأزق حقيقى .. سرقت القنينة ولا أستطيع فتحها ..

ماذا أفعل ؟

* * *

كامل

-٩-

كان اسم الرجل (تسلا) .. (نيكولا تسلا Nikola Tesla)..

عالم عظيم هو .. عالم مرموق محترم ، لكن آلاف النصابين استغلوا تجاربه بعد هذا ، حتى صار اسمه مقترنًا بالأكاذيب .. وفى أواخر أيامه لم يكن الجيران يعرفون عنه إلا أنه (واحد من هؤلاء العلماء المجانين)..

لكنهم لا يعرفون أنه الرجل الذى أتعب (إديسون Edison) وسبق (ماركونى Marconi) إلى اكتشاف الراديو ، لكن فضل هذا الاختراع ذهب إلى العالم الإيطالى ..

كانت حياة الرجل سلسلة غريبة من العبقرية والجنون والنحس الخارق للعادة .. وبعد موته - كالعادة - عرفوا قيمته الحقيقية .. وقالوا إنه (الرجل الذى صنع القرن العشرين) ..

* * *

كرواتى المولد .. رأى النور عام ١٨٥٦ ..

منذ طفولته اهتم بالكهرباء وتلك القوة العاتية الموجودة فى البرق .. وفى الوقت ذاته اهتم بقراءة رواية (فاوست) ..

الرجل الذى باع روحه للشيطان مقابل الحكمة .. هل لهذا معنى ما ؟ هل تفسر هذه القصة فلسفة حياته ؟

فى العام ١٨٨٤ هاجر إلى الولايات المتحدة ليبدأ حياته الحقيقية كواحد من أهم علماء الكهرباء فى التاريخ ..

كان (إديسون) العالم الأمريكى العظيم - أبو المصباح الكهربى - يعرف العباقرة عندما يراهم ، وقد أدرك أن هذا الكرواتى النحيل العصبى يحوى بذور العبقرية .. ضمه إلى مختبره وساعده كى يدرس التيار المتردد الذى يحلم بأن يجد الإمكانيات لدراسته ..

على أن العالم الأمريكى العظيم لم يكن بذات العظمة من الناحية الأخلاقية .. هذه أشياء تندهش عندما تسمعها عن (بلستير) و(يزنى) وسواهم .. وهذا ينبع من اعتقادنا الراسخ أن العلم أو الفن والأخلاق لا ينفصلون .. لقد كان (إديسون) مصاص دماء اعتصر من الشاب الموهوب عشرات الاختراعات ثم لم يمول المشروع الوحيد الذى كان يحلم به ..

هكذا يترك الشاب الغاضب شركة (إديسون) ويمارس أبحاثه كيفما تمكن من تمويلها .. درس التيار المتردد والكهرومغناطيسية .. وفى أحد المعارض العلمية عرض (بيضة كولومبوس) وهى بيضة نحاسية يجعلها التيار

الكهرومغناطيسى تقف على طرفها .. طبعًا هذا الاسم نسبة للتحدى الشهير الذى واجه (كولومبوس) فى البلاط عندما طلب منه الملك أن يوقف البيضة على طرفها المستدق ..

قبل أن يكتشف (رونتجن Roentgen) أشعة إكس اكتشفها (تسلا) ..

قبل أن يكتشف (ماركونى) موجات الراديو اكتشفها (تسلا) .. وجن جنونه عندما نسب الاختراع لـ (ماركونى) ونال هذا الأخير جائزة (نوبل) ..

عندما تمسك بجهاز التحكم عن بعد (ريموت كونترول) فاعلم أنه واحد من اختراعات (تسلا) التى لم تظهر بشكل تجارى إلا فى الستينات ..

قبل أن يكرس العلماء وقتهم لالتقاط الإشارات الغريبة القادمة من الفضاء الخارجى ، وقبل أن يولد (كارل ساجان) استطاع (تسلا) التقاط موجات غامضة من جهاز استشعار بناه فى (كولورادو) وقال إنه يعتقد أن مصدرها كائنات فضائية ..

كان (تسلا) يؤمن أن التيار المتردد هو الطريقة المثلى لتوزيع الكهرباء ، بينما رأى (إديسون) أن التيار المباشر هو الحل .. وهكذا عرفت أمريكا ما عرف بحرب الكهرباء بين عالمين عظيمين ..

أما حلم (تسلا) الأعظم فهو أن تملأ الكهرباء الهواء حولنا وأن يحصل عليها الناس من دون أسلاك .. أن تكون الكهرباء كالهواء تحصل عليها في أى مكان متى أردت ..

من أجل هذا الغرض قام أولاً باختراع برق صناعي رآه الناس يضرب السماء على ارتفاع ١٥٠ قدمًا (خمسة وأربعين مترًا) وقوته ملايين الفولتات ..

ثم بدأ إنشاء الحقل الكهربي العام (واردنكلايف Wardenclyffe) الذى يحلم به في (شورهام) بـ (لونج آيلاند) .. وهو مشروع لم يكتمل لكن البرج ما زال موجودًا حتى اليوم ..

كان مصابًا بعدة وساوس ومن ضمنها أنه كان مهتمًا بالرقم ٣ .. لا يدخل بيته إلا بعد أن يدور حوله ثلاث مرات ويغسل يده بثلاث قطع صابون .. إلخ .. وهذا جسد فكرة الجنون لدى من كانوا يجهلون عبقريته ..

من ضمن ما حلم به نوع من أشعة الموت التي يمكن تسليطها على الأعداء .. ثم مات في نيويورك أثناء الحرب العالمية الثانية ... ترى لماذا كان أول ما قام به رجال (مكتب الاستخبارات الفيدرالى FBI) بعد وفاة الرجل هو الاستيلاء على كل أوراقه وتصميماته ؟ لماذا ظل بعض هذه الوثائق متواريًا حتى اليوم ؟ ما معنى هذا ؟

على كل حال قد مات (تسلا) لكن العلماء حقًا عرفوا قدره .. وما زالت فوهة (تسلا) على القمر تحمل اسمه كتكريم أخير له لم يعرف به على كل حال ..

وفي كل مكان فكر علماء الباراسيكولوجى في تجاربه .. وبدت لهم ذات قيمة ما ..

★ ★ ★

ـ « يا (مارى الدموية) .. أنا قتلت أطفالك ! »

★ ★ ★

عندما توقفت السيارة البيك آب أمام الفيلا وراح حمالان ينقلان ما فيها إلى الداخل ، شعرت بذهول .. فلم أتصور أن الأمور بهذا التعقيد ..

كان (سليمان) يركض هنا وهناك وهو يوشك على الموت رعبًا ..

ـ « أنت ! لا تحمل هذا الجهاز بهذه الطريقة .. أنت .. احترس وإلا تعثرت .. هذه الأجهزة حساسة وليست أكياس علف .. »

لكن الأمر مر بسلام ، وسرعان ما تكومت هذه الحمولة الغريبة فى اللوبى ..

هرع الفتى لينقد السيارة أجرها .. وناول بعض البقشيش للحمالين على سبيل (دخانهم) .. ولم يرق لهم بطبيعة الحال .. كانوا يتوقعون حلوانًا مجزيًا من أصحاب فيلا بهذه الفخامة ..

عاد الفتى يجفف عرقه بينما راح (مختار) يتأمل الأجهزة العديدة .. وقال وهو يداعب شاربه :

ـ « هل تنوى أن تنقل محطة توليد السد العالى هنا ؟ »

ـ « ليتنى أستطيع ! »

كانت الأجهزة معقدة وكثيرة ، لكن طابع التصميم المنزلى يغلب عليها .. معظم هذه الأجهزة الرأسية المنتصبة تم تركيبه على شماعات . شماعات غرف النوم الرأسية وقد بدا واضحًا أنه ابتاعها من محلات الأثاث المستعمل لأن حالتها كانت تثير الشفقة .. هناك أسلاك معقدة ملتفة حول بعضها والكثير من شرائط لصق الكهرباء ، من الواضح أن الأسلاك مجمعة من بقايا مختلفة .. كلما وجد سلكًا ربطه فى الجزء الذى لديه كما يفعل البخلاء الذين يجمعون قطع

الخيط .. هناك أكثر من (فولتامتر) تم تثبيته إلى بعض الأجزاء ، أما الشبكة العملاقة التى تخرج من هذا الحامل الرأسى فمن الواضح أنها أسلاك من التى يثبتونها على بيوت الدجاج ، لكنه لحمها ببعض لتبدو كأنها شبكة رادار .. كان كل شىء مثبتًا (بأستك) مطاطى من الذى يستخدم فى الثياب الداخلية .. إحم .. جزء منها بالتحديد ..

قال (مختار) وهو يتأمل هذه التعقيدات :

ـ « هذا سيرك .. »

ـ « ربما .. لكنه سيرك يعمل وليست ألعاب حواة .. »

قلت للفتى وأنا أفتح أحد الصناديق :

ـ « لقد كلفك هذا ثروة .. »

ـ « ليس كما تعتقد .. أنا مفلس أصلاً .. أطالع الكثير من مجلات الهوايات وأعرف كيف أصنع أشياء كثيرة بأقل تكلفة أو بلا تكلفة .. جهاز المذياع الذى أستعمله فى بيتى صنعته بنفسى .. عندى عداد (جايجر) من تصميمى لم يكلفنى إلا عشرة جنيهات .. »

وأصدر تعليماته لنا بأن نساعده .. هذا الجهاز هنا .. ذلك الجهاز هناك .. لو سمحت مد هذا السلك .. نعم .. خذه

معك إلى أعلى الدرج .. وأنت يا أستاذ (مختار) .. أريد أن تضع هذا فى غرفة نوم (رانية)..

تعثرت الزوجة فى أحد الأسلاك فسقط جهاز على الأرض وتهشم .. لكن الفتى لم يبال وأخرج مفكًا وبنسة صغيرين وراح يعيد تركيبه فى دقائق ..

مررت بجواره فسمعته يهمس كأنه يكلم نفسه لكن الكلام كان لى :

ـ « شكرًا د. (رفعت) .. »

رفعت حاجبى متسائلاً فقال دون أن ينظر لى :

ـ « لم أحسبنى قط سأعود لممارسة الحياة بهذا الحماس .. عندما التقينا كنت ضائعًا وكنت قادرًا على ابتلاع علبة من السم دون أن يرجف لى جفن .. اليوم أنا مندمج بالكامل فى هذا وأشعر بأن لى نفعًا .. كنت بحاجة إلى من يثق بى .. واحد فقط يثق بى كى أثق بنفسى .. أنت فعلت ذلك .. »

لم أرد وتركته .. لأنى لو وقفت لحظة واحدة لانفجرت فى البكاء كالأطفال مع ضرب الأرض بقبضتى وركلها .. ما لا يعرفه هو أننى وثقت به فاستعاد ثقته بنفسه .. وهذا - تصور - جعلنى أثق بنفسى ! .. دائرة بالغة التعقيد من

المنح والأخذ لا تتمتع بها إلا عواطف محدودة من التى تسرى فى اتجاهين مثل الحنان والثقة .. عندما تحنو الأم على رضيعها الهش الضعيف فإنه يعطيها الكثير جدًا .. أكثر مما يأخذه منها ..

وسط هذه الخواطر تدخل (مختار) فى عصبية :

ـ « هل تعتقد أننى سأتركه يمارس ألعاب العفاريت هذه هنا ؟ »

قلت وأنا أبعده عن المشهد :

ـ « ليس لديك الخيار يا (مختار) .. أنا أثق بهذا الفتى وأعتقد أن عليك أن تثق به .. لن تخسر شيئًا .. لاحظ أننا قررنا أن نجرى التجربة مساء السبت ـ أى اليوم ـ لأن كل ما حدث هنا من أحداث وقع فى هذا اليوم .. لو كانت هنا أشباح فالسبت يومها .. »

عندما انتهى (سليمان) من كل شىء بدا البيت كأن غزوًا فضائيًا قد استولى عليه .. أبراج مراقبة فى كل مكان وأسلاك وعدادات وكشافات صغيرة مربوطة إلى أسلاك تتراقص كأنها عيون كائنات فضائية .. هناك شبكة معدنية فى كل غرفة تقريبًا ..

قلت له :

- « والآن أرجو أن تشرح لنا ما تنوى عمله .. »

جفف عرقه وأعاد المنديل إلى جيبه وقال :

- « (تسلا) .. »

عاد (مختار) يسأله :

- « تسلم ؟ . تسلم من أى شىء ؟ »

قال الفتى :

- « أتكلم عن (تسلا) المخترع الكرواتى العظيم .. لقد صنع برج (واردنكلايف) لينشر الكهرباء فى الجو .. أراد أن يمد الناس الأسلاك فيأخذوا الكهرباء من الهواء مباشرة .. فيما بعد فكر العلماء فى قياس الموجات الكهرومغناطيسية فى هواء البيوت المسكونة .. إن موجات (تسلا) هذه تنشط الظواهر الخارقة .. ولسوف نسجل أى تغير فى الموجات .. أى نشاط كهرومغناطيسى غير معتاد .. لن يفلت منا شىء .. فى النهاية يمكننى أن أقول لك ما إذا كانت هناك طاقة نفسية فى هذه الفيلا أم لا .. »

قلت وأنا أعتقد أننى سمعت هذا الكلام من قبل :

- « هل لديك تجارب تشهد بصدق هذا المعتقد .. »

قال فى توتر :

- « لقد جربت على الحيوانات كثيرًا .. عندما يموت الفأر وهو يتألم تنبعث منه طاقة لا شك فيها .. وهذه الطاقة تظل فى المكان فترة لا بأس بها .. ربما عدة أيام .. بعد هذا صرت قادرًا على العثور على جثته لأن أجهزتى تشعر بها .. »

قلت لـ (مختار) :

- « هل تفهم شيئًا من هذا الكلام ؟ »

قال فى غيظ :

- « وهل تفهم أنت ؟ لا تقل إننى الحمار الوحيد هنا .. »

ابتلعت التعليق الذى أردت قوله وأضفت :

- « لا أفهم إلا شيئًا واحدًا .. القصة الدائمة هى أن هناك شخصًا مدفونًا تحت الفيلا أو فى جدارها .. ترى هل هناك شىء كهذا ؟ ولو كان كذلك فأين هو ؟ أعتقد أن تجربة (تسلا) هذه سوف تقودنا لشىء ما .. »

فيما بعد - فى الثمانينات - قرأت عن تأثير (هتشنسون Hutchison effect) الذى يستخدم نفس تجارب (تسلا) ..

اكتشف (هتشنسون) أن التيار قادر على رفع أجسام عن الأرض ، وتغيير صفات البلورات ، ودمج الخشب بالحديد ، وتهشيم المعادن .. إلخ ..

ثمة لغز مخيف يحيط بتيار (تسلا) المتردد هذا .. الحق أن كل ما يحيط بالرجل غامض مثير ..

لكن (مختار) كان مهتمًا بنقطة أخرى :

ـ « الكهرباء .. كم يستهلك هذا الشىء من الكهرباء ؟ أعتقد أنك ستأخذ الكهرباء من عندى »

شرقاوى بخيل ؟ هذا كائن أسطورى نادر مثله مثل اليهودى السخى أو الإيطالى الذى لا يجيد الغزل .. (مختار) هو الشرقاوى الوحيد البخيل على ظهر البسيطة على قدر علمى .. كان هناك واحد آخر لكنه مات منذ أعوام .. وسط كل هذا يقلق على فاتورة الكهرباء !

قال (سليمان) وهو يلحم سلكين بشريط لاصق :

ـ « لا أعتقد أننا سنستهلك الكثير .. ثم إننا سنطفئ جميع الأنوار ونفصل أى جهاز كهربى .. لا أريد موجات دخيلة .. »

ـ « وكيف ترى ؟ »

ـ « على ضوء الشموع .. والآن هل نبدأ ؟ »

صاح (مختار) ينادى زوجته .. لا نريد أن يبقى أحد وحده .. هناك تلك البائسة الغارقة فى غيبوبة .. لن يحدث لها شىء إن شاء الله ..

ابتلعت قرصًا من دواء الضغط وقرصًا من موسع الشرايين التاجية حتى أتحمل ما قد تراه ..

أشعلوا الشموع .. احبسوا الأنفاس ..

فلتوصل التيار الكهربى يا (سليمان)....

* * *

-١٠-

(من مجموعة خطابات وجدوها فى وقت متأخر جداً .. الخط مختلف تماماً ويشبه خط الأطفال) :

القاهرة فى ٢٥ أغسطس ١٩٧٨ :

أخى (رامز) :

لم أكتب لك منذ فترة طويلة ، وأنت لا تسأل عنى على الإطلاق .. كنت أتوقع خطاباً واحداً .. أنا أكتب لك منذ عشرين عاماً بلا استجابة ويبدو أنكم قررتم أنه لا وجود لى ، أو أن خطاباتى أقنعتك بأننى مجنون من الخير أن تنساه .. فقط (جمانة) اتصلت بى ثلاث مرات فى عشر سنوات ..

أعتقد أنك لا تعرف أننى أصبت بجلطة مخية منذ أعوام .. نعم .. كنت أتناول الطعام عندما جاء (سلامة) يتوكأ على عصاه ويسألنى عما إذا كنت أريد شيئاً فكان ردى هو (ممففبيب ممف)..

وعندما دنا ليفهم وجد أننى أنظر له فى ذعر .. لقد صار نصفى الأيمن عاجزاً عن الحركة تماماً .. والتوى ركن فمى .. كنت مكوماً إلى جانب المقعد ككيس غسيل وهى حالة مزرية لم أتوقعها ولم أرها فى كوابيسى .

هرع الباسل يجلب لى الطبيب .. ودخلت المستشفى بضعة أيام ، وفى النهاية عرفت أنها جلطة مخية .. خرجت من المستشفى على مقعد متحرك إلا أن هناك ممرضة انضمت لأهل البيت تقوم بمتابعة علاجى وإجراء العلاج الطبيعى لى . هناك محام يقوم بالإجراءات المالية لى ، و(سلامة) يعنى بالبيت كأنه لأخى ..

لقد تحسنت كثيراً فلا تقلق (إن كنت تقلق على) ، وقد استغنيت عن المقعد المتحرك منذ عام .. يمكننى أن أستعمل العكاز وأن أصعد وأهبط .. يمكننى النزول إلى القبو .. ببطء شديد لكننى على الأقل لست بحاجة لأحد . يمكننى أن أكتب .. صحيح أنه ليس ذات الخط الجميل السابق لكنه مقروء .

هناك مشكلة واحدة لكنها ضخمة بالفعل .. منذ أصبت بالجلطة لا أستطيع أن أزور هؤلاء القوم فى المقبرة .. حتى بعد ما استعدت حركتى نوعاً ما زلت فى حالة لا تسمح لى البتة بأن أهبط درجات مثبتة إلى جدار بئر ، وأمشى فى نفق مظلم ثم أعود ..

تلك مشكلة .. لكن الأخطر منها هو أننى لا أستطيع إعادة ما سرقته ..

لقد باغتنى المرض قبل أن أعيد القنينة إلى أصحابها .. طبعاً عهد الدم يمنعنى من إطلاع واحد آخر على السر .. واحد يقوم بإرجاع القنينة بدلاً منى .. لقد كان عهد الدم واضحاً فى أن السر سيبقى داخلى ، لكنه لم يتكلم عن إعادة

المسروقات .. إذن الأولوية للصمت .. لا أريد أن أغطى حماقة بحماقة أخرى ..

لماذا تركونى كل هذه الأعوام ؟ لا أعرف .. بالطبع هم لا يعرفون الزمن كما نعرفه .. ربما كانت القرون عندهم مثل دقائقنا أو ثوانينا ..

هم الآن غاضبون لأننى اختفيت ولم أعد أنزل لهم .. غاضبون لأننى سرقت القنينة .. لا أعتقد أن اختفاءها لم يلحظه أحد بعد كل هذه الأعوام ..

الآن صار الوضع كما يلى : رجل عجوز معوق تطارده غضبة كائنات لا قبل له بها .. لا قبل للبشرية بها .. وانتقام هذه المخلوقات آت حتمًا .. وهو يتجاوز المسافات والأزمنة .. ويحل بالأهل الأبرياء بسهولة تامة وبلا تأنيب ضمير ..

أعتقد أنهم قادرون على المجىء إلى .. قادرون على استرداد القنينة ، لكنهم يفضلون أن ينتظروا .. أن يثيروا الذعر فى نفسى ..

لا أعرف متى تأتى اللحظة .. لكنها آتية .. أعرف هذا يقينًا كما أعرف ان اسمى (كامل)..

كامل

* * *

القاهرة فى ١ سبتمبر ١٩٧٨ :

أخى (رامز) :

قمت بما كان يجب أن أقوم به .. طلبت من (سلامة) أن يتصرف ويأتى ببعض العمال ليصبوا الأسمنت فى قاع القبو .. كلام كثير عن الرطوبة والمياه الجوفية والفئران التى تتسلل .. إلخ .. أى كلام يقنع هؤلاء الفضوليين بأن ينفذوا دون أسئلة .. قمت قبل قدومهم بإخفاء فتحة البئر ـ الفتحة التى تغطيها القضبان ـ بالورق المقوى ثم داريتها بالغبار .. وهكذا لم يلحظها أحد وقد قاموا بالصب وتجمدت الطبقة .. هذه الفتحة قد توارت للأبد ما لم أجلب أنا من يعيد فتحها .....

بعد هذا قمت بإعادة كل ما كنت أخزنه فى القبو إليه .. الزجاجات الفارغة التى كنت أملؤها دمًا .. المقعد المتحرك الذى استغنيت عنه .. ثيابى القديمة .. حتى صور مراهقتى .. هل تذكر كم كنت أعشق (فاطمة رشدى) ؟ لن يلاحظ أحد شيئًا على الإطلاق ..

لا أعنى بهذا أننى صرت آمنًا .. لكن السر صار كذلك .. لن يجد الفتحة شخص آخر من بعدى ..

بقيت مشكلة القنينة التى تحوى سر الشباب والتى عجزت عن فتحها طيلة هذه الأعوام .. لا تطلب منى أن

أفتحها عنوة .. صحيح أن هذا هو الوقت المناسب وأننى لن أجد مناسبة خيراً من هذه لشرب ما بها ، لكننى لا أجرؤ .. هذه القنينة هى أملى الأخير فى ألا يمتد الانتقام لأسرتى وأحفادكم .. يجب أن تعود إلى حيث كانت ....

سوف أخفيها فى موضع من الفيلا .. لن أصرح بهذا .. وسوف أترك رسالة مبهمة لمن يأتون بعدى . أحدهم سوف يفهم وينفذ ، لكن لن يستطيع أحد أن يتهمنى بإفشاء السر .. ستكون طريقة بارعة خادعة .. ومن يجدها ويفهمها يستحق أن يعرف ..

الآن أتركك فى رعاية الله ..

فقط تذكر أخاك الذى تورط فى هذه القصة الرهيبة ، والذى لم يستحق قط أن يكون حليفاً للشياطين لكنه صار كذلك .. صار شيئاً أقرب للشخصيات التى تقرأ عنها فى الأدب العالمى .. خادم (دراكيولا) .. (لبيوريللو) .. خادم (فرانكنشتاين) الأحدب الذى يسرق المقابر له ..

ادع لى بالرحمة ..

فأنا أعرف أن هذا آخر خطاب أكتبه لك ......

كامل

الجزء الثالث

أسطورة بيت الأشباح

ـ « هؤلاء لا يريد أن تصل الرسالة إلا لمن يعرف هذه الأمور .. باختصار كان ينتظر ساحراً أو شخصاً يفهم فى السحر .. السؤال الحقيقى هو : لماذا يريد منا أن نصل للقنينة وفتحة القبو ؟ ما هى الرسالة ؟ لن نعرف إلا بالنزول إلى هناك .. »

- ١ -

لم يكن الشعور محببًا ..

لا أعرف كيف أصفه لكنه يبعث الغثيان فى النفس .. شعور بأن معدتك ليست على ما يرام وأن أذنيك لا تعملان جيدًا وأنك مريض تعس .. عندما جربت جهاز الرنين المغناطيسى MRI بعد هذا بأعوام شعرت بشىء مماثل ، وإن كان معظم المرضى لا يشعرون بالشىء ذاته .. ربما كانت أذناى حساستين وربما كانت روحى نفسها كذلك ..

بدا التقزز على وجهى ونظرت إلى (سليمان) الذى تلمع عيناه فى ضوء الشموع ، فقال :

« نحن فى مجال كهرومغناطيسى عال .. لا بد من أن يؤثر هذا على أجهزة جسمك .. »

كان الموقف كريهًا .. ظلام دامس وبضعة شموع تجعل الجو حارًا لا يطاق ، مع شعور الغثيان الغريب .. ورأيت أن (مختار) وزوجته ليسا على ما يرام مثلي..

كان الطفل والممرضة قد غادرا البيت .. لا أحد يريد أن يمرا بما سنمر به .. لا أعرف ما سنمر به لكنه لا يناسب الأطفال حتمًا ..

ومن الظلام راحت أضواء خضر تتوهج .. المصابيح التى نثرها (سليمان) فى كل مكان تنبض .. لا أعرف معنى هذا ..

قلت وأنا أجفف عرقى وأشهق كى لا أسقط فاقد الوعى :

- « ما معنى .. هذه الأضواء ؟ »

- « لا شىء .. فقط تقول إن المجال الكهرومغناطيسى محكم .. »

ثم أمسك ورقة وراح يخط عليها أرقامًا ..

- « لا يوجد شىء مريب هنا .. تعال نبحث فى الغرف .. »

غرفة (رانية) .. سلبى .. لا يوجد أى شىء غريب .. إنها راقدة فى الفراش كما هى وجوارها شمعة على الكومود .. مصباح أخضر يتوهج ليلقى ظلالاً على وجهها لكن المشهد يوحى بالسلام ..

أتبعه وأنا أتوكأ على العكاز وأحمل شمعة كأننى أحد قراصنة الكاريبى فلا بد أن صوت الضربات وهى ترتطم بالخشب يثير الرعب فى قلوب الأشباح ...

المطبخ .. لا شىء ..

اللوبى .. لا شىء ..

غرفة مكتب (مختار) .. لا شيء ..

غرفة نوم الطفل .. لا شيء .....

القبو .. لا شيء ....

غريب .. مع أنه مكان موح فعلاً .. دعك من أننا وجدنا الكتب المشئومة فيه .

العلية ..

هنا نظرت له وقد أدركت أن هناك شيئاً ما ..

هذه هى الغرفة الأولى التى لا يتوهج فيها النور الأخضر .. بدلاً من هذا يتوهج مصباح أحمر يبعث ظلالاً شيطانية على كل شيء ...

قلت له همساً :

- « هل هذا يعنى ....؟ »

- « ش ش ش ش ! »

قالها فى حزم ، ثم أخرج من حقيبته عداداً صغيراً له مجس فى أعلاه ، وراح يمرره على الجدران كما يفعل خبير الإشعاع الذى يبحث عن فضلات نووية .. أرى أن المؤشر يتحرك فى نشاط وجشع .. ثم قال :

- « هناك شيء هنا .. لقد شعر به .. إن الطاقة الكهرمغناطيسية قوية »

وتوقف جوار جدار .. دق عليه بيده مرتين فسمعت صوت الـ (بونك بونك) المميز لوجود تجويف.. نظر لى نظرة ذات معنى وابتسم ورسم دائرة على هذا الجزء الأجوف ..

ثم إننا نزلنا لنتفقد باقى أجزاء المنزل .. لم ينس الحديقة ولم ينس بئر السلم ولا غرفة نوم (مختار) .. وفى النهاية اتجه إلى أجهزته ليوقفها .

لقد انتهى ذلك الشعور المقيت .. أخيراً عدنا نتنفس ونشعر كالبشر ..

انتهى تأثير موجات (تسلا) الذى سيطلقون عليه اسم (تأثير هتشنسون) بعد أعوام ..

ساد الصمت .. لم يقطعه إلا (مختار) يقول فى عصبية :

- « لو أننا أصبنا بالسرطان من جراء هذا الشيء اللعين فأنت المسئول .. سوف أرفع عليك عدداً من القضايا تضطر معه لبيع سروالك الداخلى »

قال (سليمان) من دون أن يرد على الاتهام :

ـ « هل لديك شيء يصلح للدق ؟ هناك جدار أريد هدم جزء منه فى العلية ! »

ـ « هل جننت ؟ »

قلت وقد بدأت أعصابى تتوتر فعلاً :

ـ « (مختار) .. لو لم يكن لديك عمل إلا إطلاق التهديد واللوم فإننا سنكون سعيدين لو سمحت لنا بالانصراف .. هذا الفتى يقول الكلام الوحيد المعقول فى هذه القصة ، فإما أن تصغى أو لا تضيع وقته »

لان الرجل قليلاً فغاب بضع دقائق ، ثم عاد حاملاً مطرقة كبيرة أقرب إلى (قادوم) ومعها مفك عملاق يصلح لتحويله إلى إزميل .. كان يحتفظ بهذه الأشياء ليشعر بأنه بارع لا يستطيع الحرفيون خداعه ، وكان يصر على أن يتصيد أول حرفى يقابله ليلفظ أمامه أسماء مثل (المنجفرة) و(المتيجا) و(الرداخ) و(الباتير) كى لا يحسبه الحرفى أفنديًا سهل الخداع ..

صعدنا إلى العلية فراح الفتى يسدد الضربات إلى ذلك الجزء الهش من الجدار الذى يقول (بونك بونك) .. أعرف هذا الجزء من أفلام الرعب وأخشاه كثيرًا .. سرعان ما نترك المكان كالبلهاء فيخرج شيء ما من هذه الفتحة .. شيء كان حبيسًا

من ألف عام .. راح الملاط يتهاوى وأدركنا أن هناك لوحًا صغيرًا من الخشب وضع على التجويف قبل أن يقوم أحدهم بتسوية المكان بالمحارة ..

إذ انتزعنا الأسمنت الجاف وبقايا الخشب مد الفتى يده يتحسس ما هنالك .. كان متحمسًا فلم أجد الوقت لأنذره .. يا أحمق .. لا تضع يدك فى فتحة لا تعرف ما بها أبدًا ..

لكنه لم يتلق اللدغة القاتلة أو تنغرس فى إصبعه الإبرة السامة ، وبالتأكيد لم تقبض مومياء (خاريس) على ساعده .. فقط بدا عليه الظفر ثم أخرج يده وفيها كانت قنينة صغيرة مسدودة بسدادة من زجاج .. وكانت تحوى سائلاً أحمر غريب الشكل ..

صاح (مختار) فى لهفة :

ـ « دم ! لا بد أنه سبب هذه اللعنة ! »

قلت وأنا أمسك بالقنينة :

ـ « لا .. ليس دمًا وإلا لتجلط أو تعفن .. إنه إكسير ما .. وما زلت لا أفهم القصة .. كنا نبحث عن جثة يجول شبحها هنا فوجدنا قنينة صغيرة .. ما معنى هذا ؟ »

★ ★ ★

- ٢ -

لا أعرف السبب لكننا عجزنا عن فتح تلك القنينة .. خطر لى أن أنشر عنقها بمبرد كما نفعل بأمبولات الحقن ثم عدلت عن هذا .. كيف أعرف أن ما بداخلها ليس بكتريا الطاعون أو فيروس الجدرى ؟ أعرف أن هذا كلام غير علمى ، فالميكروبات لا تحفظ بهذه الطريقة ، لكن المنطق يقول إنه من الخطأ أن تفتح زجاجة لا تعرف محتواها لمجرد أن هذا يروق لك .. دعك من أن أكثر العلماء يرجحون أن لعنة الفراعنة تسببها جراثيم متحوصلة Spores ظلت فى المومياوات حية أربعة آلاف سنة ..

- « لن نفتحها .. لكننا سنحاول الفهم .. »

قلتها ونحن نجلس فى مكتب (مختار) والزوجة توزع علينا أكواب الشاى كالعادة .. ثم إننى أخذتُ قرصًا من علبة دواء الضغط وابتلعته مع الماء ، فقد حان موعده ..

قال (مختار) وهو يمسك بالقنينة ليراها عبر النور :

- « لو كان كلامك صادقًا فهذه القنينة هى مصدر كل مشاكل البيت .. إنها البطارية التى تحرك الأشياء .. إذن المنطق يقضى بالتخلص منها فى الصحراء .. »

- « أعتقد هذا .. »

ثم فكرت قليلاً وأضفت :

- « لا أعرف من كلمنى على الدرج ، لكنه أمرنى بالتفتيش فى بيت الأشباح .. لقد فعلنا هذا فوجدنا هذه القنينة .. »

بدا الاعتراض على (سليمان) لكنه انتظر فى أدب حتى فرغت من كلامى وقال :

- « ليس بيت أشباح .. أنا متأكد من أنه لا توجد أشباح .. بل هذا هو المكان الوحيد فى العالم الذى يمكنك أن تقسم على أنه خال من الأشباح .. إن أجهزتى عالية الحساسية .. الشىء الوحيد الذى يحوى قوى نفسية هو هذه القنينة ، ونحن نعرف أنها ليست شبح قنينة . »

قال (مختار) بطريقته المقتحمة :

- « إذن من الذى يحرك الأشياء وينظر فى المرايا ؟ خالتى ؟ »

كنت أنا أفكر فى عمق ثم قلت :

- « من الأشياء التى لفتت نظرى منذ البداية هدوء الكلب .. لا شىء يثير أعصابه وجنونه سواى .. وقد تعلمت أن الحيوانات شديدة الحساسية لهذه الظواهر فوق الطبيعية .. لا بد أن صمته يعنى شيئًا ما . ثم هناك الجزء التالى من نصيحة الوجه أو أمره - لا أدرى - وهو يقضى بأن الأرقام سوف تهدينى .. هذا الجزء لا أفهمه ولم يتحقق »

قال (سليمان) :

ـ « أية أرقام ؟ .. هل يقرع هذا جرسًا عندكم ؟ »

ـ « لا يقرع أية أجراس إلا إذا .... »

ورحت أفكر فى عمق من جديد .. يوشك مخى أن ينفجر وتسيل الدماء من أذنى .. هناك أرقام فى مكان ما .. هذا الموقف مألوف ..

وفجأة تذكرت ...

قلت لـ (مختار) :

ـ « تصميم الفيلا .. اللوحة التى وجدناها فى العلية .. هل هى عندك ؟ »

قال وهو ينهض ليفتش فى مجموعة من الأوراق وضعها على مكتبة قريبة :

ـ « عندى طبعًا .. إنها مهمة لبيع البيت وهو ما يبدو أننى سأفعله بسبب تلك المخبولة .. أعنى المدام .. لم تعد تطيق هذه الفيلا لحظة .. تراها الشؤم بعينه .. واضح أننى سأبيع لكن بشروطى .. يجب أن أحقق بعض الربح .. فقط الحمقى يبيعون بسرعة وبلا تدقيق .. و .. ها هى ذى .. »

ومن تحت الأوراق أخرج الصورة ذات الإطار ..

ناولها لى فوضعتها أمام (سليمان) وقلت :

ـ « كما ترى .. هناك أرقام على هذا الرسم .. »

قال فى حيرة :

ـ « هذه الأرقام لا معنى لها .. إنها لا تفيد المهندس الذى يصمم الفيلا .. بل هى مفيدة لصاحبها ولغرض محدد فى ذهنه .. »

ـ « تلك هى المشكلة .. لم أر أرقامًا هنا إلا فى هذه اللوحة .. »

مد يده وبحرص أزال خلفية اللوحة فصاح (مختار) محذرًا ، لكن الفتى نزع الخلفية بشكل جزئى متوقعًا أن يجد شيئًا وراءها .. هذا لم يخطر ببالى لكنه على كل حال لم يجد شيئًا .. فى هدوء وبلا تعليق مد يده إلى بكرة شريط لاصق شفاف على مكتب (مختار) ومزق جزءًا أصلح به ما أتلفه ..

قلت له ضاحكًا :

ـ « لو صدق هذا لحلت المشكلة فى ثوان .. رسالة من صاحب الفيلا السابق تخبرنا أن هناك قتيلاً فى المكان الفلانى وأن علينا استخراجه والصلاة عليه ودفنه .. وهكذا يعم السرور وتحل المشاكل ويتزوج البطل البطلة ! »

انتفض (مختار) لسماع هذا التعليق ، فطنت إلى ما فيه من قلة ذوق .. البطلة حتى اللحظة هي (رانية) .. الأميرة النائمة بانتظار قبلة من البطل .. من البطل ؟ ليس أنا وليس (مختار) وليس أنت .. ورفعت عينى إلى (سليمان) ونظرت له فى ارتباك ..

إنه فعلاً من عالمها .. كلاهما شفاف حزين مرهف غريب فى العالم .. لكن من قال إنها قد تعجبه ؟ إنه لم يرها قط .. دعك من أن (مختار) لن يقبل أبدًا بعريس مفلس لابنته حتى لو كان (تسلا) نفسه .. لا بد أنه يدخر فى ذهنه عدة لواءات ومستشارين ورجال أعمال لهم أبناء ذكور ، وهو يحلم بزيجة سياسية مثمرة تزيد كومة المال المشتركة وتمنحه المزيد من النفوذ الذى يجنبه السجن بإذن الله .. والحقيقة الأقطع هى أن (مختار) لن يقبل أبدًا بعريس جاءه عن طريق (رفعت إسماعيل) .. إن العرسان الذين يأتى بهم المخابيل مخابيل مثلهم أو ـ على أفضل تقدير ـ حمقى ..

لم يدر (سليمان) بما يدور فى ذهنى لأنه كان يفكر :

ـ « رأيى الخاص هو عدم التخلص من هذه القنينة إلى أن نعرف ما هى .. وأقترح أن نحاول الاتصال بورثة (كامل

البدراوى) وخادمه العجوز .. سوف نعرف منهم كل شىء عن هذه الفيلا »

قال (مختار) :

ـ « الخادم من الغربية .. قرية اسمها (خارصيت) هناك .. أما (هانى البدراوى) ففى (مونتريال) .. كندا .. ربما أمكن أن نتصل به .. »

قلت فى حماس :

ـ « لا أدرى لماذا نضيع وقتنا فى هذا ؟ يا أخى بع الفيلا وانته .. »

صاح (مختار) وقد احمر وجهه :

ـ « عندى فتاة شابة مصابة بغيبوبة لا يعلم إلا الله سببها .. يجب أن أعرف .. أنتما قلتما لى إن لهذا علاقة بهذه الفيلا اللعينة .. إذن على أن أعرف كل شىء .. أقسم بالله لو كانت (رونى) سليمة لما حركت إصبعًا فى هذا الموضوع .. »

وفجأة رأيتهما ينظران لى فى قلق ..

★ ★ ★

-٢-

ماذا هنالك ؟ الفتى ينهض ويجلب لى كوب ماء و(مختار) يفتح المروحة ويضعها جوارى ويقول لى :

- « آسف إذا كنت قد استفززتك .. استرخ .. »

ماذا يحدث ؟ هل جن الجميع ؟

قلت فى دهشة :

- « أنا بخير .. ماذا دهاكما ؟ »

رأيت (سليمان) ينظر لى ثم يتجاسر فيخفف ربطة عنقى ويفتح زرين ، ثم قال :

- « لا أعرف السبب لكنك شاحب تمامًا والعرق ينهمر علي جبينك .. »

- « هذا كلام فارغ .. أنا خبير بالنوبات القلبية .. لا أشعر بأى شىء .. »

ونهضت لأبرهن لهما على أننى بخير ، لكنى شعرت بأن ساقى تتخليان عنى ورأسى يدور .. هذا الإحساس بأن روحى تتسرب منى .. ماذا يحدث ؟ هل أصبت بداء السكرى ضمن

قائمة أمراضى ؟ هكذا استرخيت على المقعد وسمحت للفتى بأن يرش وجهى ببعض الماء ..

قال (مختار) وهو يسب ويلعن :

- « لا تمت هنا فى بيتى .. أرجوك .. »

- « سأحاول .. لكن أؤكد لك أننى بخير .. »

وهنا تذكرت .. كم أنا أحمق ..! .. لقد ابتلعت دواء الضغط مرتين .. مرة قبل التجربة ومرة بعدها وهو الخطأ الأكثر شيوعًا لدى مرضى الضغط .. لا أعتقد أن هذا سيقتلنى لكنه مزعج بما يكفى .. هذه حالة انخفاض حاد فى ضغط الدم .. ربما لو تناولت بعض السوائل والمخللات .. لا بأس بقهوة مركزة .. لا أعتقد أننى بحاجة إلى محاليل أو هايدروكورتيزون ..

هكذا وضعت الزوجة المذعورة أمامى طبقًا مليئًا باللفت المخلل الذى تجيد صنعه مع قدح من قهوة مركزة ، بينما رقدت على الأريكة لأبقى رأسى منخفضًا ..

قال (مختار) وهو يدس كمية هائلة من اللفت فى فمى :

- « كل .. كل ! »

قلت وأنا أوشك على الاختناق لأننـى لا أستطيع الابتلاع وأنا راقد :

ـ « توقف ! ليس إلى هذا الحد .. لقد حدث هذا الخطأ معى مرتين من قبل ولم أمت »

ـ « إذن لماذا لا تكون أكثر حذرًا ؟ ألا تجد شيئًا أفضل لتفعله غير أن تموت فى بيوت الآخرين وتفضحهم ؟ »

بدأت أشعر بتحسن فنهضت معلنًا أن وقت الرحيل قد حان ، لكن الزوجة أقسمت أغلظ القسم أننى سأبيت ليلتى هنا .. لن يطمئنوا على إذا قدت السيارة أو عدت لدارى لأنام وحيدًا ..

ـ « لكن على أن أوصل (سليما ...... »

صاح (سليمان) فى أريحية أنه لن يقبل ذلك .. سوف يتصرف؛ فنحن فـى المعادى ولسنا فـى مجاهل أفريقيا أو غابات التايجا .. ونهض على الفور طالبًا الإذن فى الانصراف .. سوف يأتى غدًا بسيارة لينقل كل مخلفاته التى جلبها اليوم ..

قلت له وأنا راقد أتمم اللفت :

ـ « لماذا لا تتركها بعض الوقت ؟ أعتقد أننـا قد نحتاج لدورة ثانية .. »

صاح (مختار) :

ـ « مستحيل .. لقد تحول البيت إلى ستوديو تلفزيونى .. مئات الأسلاك والمصابيح .. لو كان هناك شبح هنا فأنا أتوق لرؤيته يتحرك وسط كل هذا دون أن يكسر رجله .. »

.هكذا انصرف الفتى على وعد بـالتفكير ، وبرغم أننى تحسنت فعلاً مع الوقت فقد أصر (مختار) على أن أبيت .. كان كالعاصفة فلم أستطع الاعتراض ...

* * *

هذا هو التفسير إذن لكونك ترانى راقدًا فى هـذه الحجرة بالطابق الأرضى من الفيلا ألبس منامة من منامات (مختار) التى أسبح فيها سباحة .. أحتاج لربع ساعة كى أعرف أين ذراعى ، ثم ربع ساعة حتى اعرف من أين تخرج .. هذه المنامة بها ٥٦ فتحة تصلح كل منهـا كمًا .. ثم أجد أننى نسيت ما كنت أريد عمله بهذه الذراع .

لم أحب المكان وكنت أشتهى فراشى .. لكنى قدرت أنها ليلة ستمر سريعًا .. إنها الثالثة صباحًا بـالفعل فلم يبق إلا أن أتحمل أربع ساعات أخرى ..

كان الطلب الوحيد الذى طلبته هو أن آخذ تصميم الفيلا معى فى غرفتى .. أريد أن أسهر عليه لأننى أعتمد على الإلهام الذى يأتى فى ساعة مبكرة من الفجر .. سأفهم كل شىء فجأة ..

لقد أرغمتنى الزوجة على التهام طن من المخللات وجالونات من القهوة السوداء .. هذه الأسرة تتصرف بطريقة (الكل أو لا شىء) .. إما أن أموت بهبوط الضغط أو أموت بارتفاعه .. وقد بدأت قرحة معدتى تصحو متسائلة عن ذلك المخبول الذى يضع فوقها كل هذا اللفت المخلل فى هذه الساعة .. الألم الحارق يبدأ فى فم معدتى .. قرحتى تضرب كفًا بكف تشكو حالها إذ اضطرت لتحمل نزوات مجنون مثلى .. » حتى الضباع لا تأكل المخللات فى ساعة كهذه .. »

بسبب الألم الشديد جلست متربعًا فى الفراش فى الظلام ورحت أفكر ....

هناك شىء ما شديد الوضوح فى هذه القصة لكنى لا أعرفه ..

الإجابة قريبة جدًا .. كأننى فى امتحان شفوى أتمنى أن يلفظ لى الممتحن أول حرف كى أنطلق ..

لكن .. أين هذا الممتحن ؟

★ ★ ★

- ٤ -

- « فتش فى بيت الأشباح .. وسوف تهديك الأرقام .. »

- « فتش فى بيت الأشباح .. سوف تهديك الأرقام .. »

من صاحب الوجه الذى رأيته فى المرآة ؟ . كنت أتمنى أن أتهم نفسى بالهستيريا لكن الفتاة رأت نفس الوجه ووصفته بدقة ..

كيف تهدينى الأرقام ؟ هل يمكن أن أتتبعها على اللوحة مثل تلك الألغاز التى تملأ المجلات ؟ تتبع الأرقام بقلمك لتعرف الشكل الذى رسمه الرسام .. أعتقد أن الأشباح ليست رائقة المزاج لهذا الحد ، ولن تهدينى اشتراك عام كامل فى مجلة (بسبس) مع نشر صورتى ..

ما محتوى هذه القنينة ؟

أضأت المصباح جوار الفراش .. وعدت أنظر إلى اللوحة .. ثم مددت يدى أنتزع خلفيتها من الناحية الأخرى .. أى أننى فعلت ما فعله (سليمان) تقريبًا لكن من الجهة التى لم يحاول نزعها ..

بالفعل هناك شىء ..

خرجت يدى بورقة مطويـة ففتحتها وقلبى يرتجف بين الضلوع.

وجدت فيها أبيات شعر مألوفة تقول :

ـ « تمضى الحيـاة وكلنا فى دربها ... ونغيب عنها .. والخطى لا تندثرْ

من قبلنـا يمشى الألى جـاءوا بنا ... مـن بعدنا يمشى مـلايين البشرْ

فاسمع صرير الريح تبكى حولنا ... واسمع صدى الأشباح تعوى فى سقرْ

تلك المروج الخضر ما كانت لنا ... إلا كمـا الريحان يحتلك السحرْ

نفس الأبيات السخيفة .. هذا الرجل كان يصر على أنه عبقرى وأن هذه درة يجب أن نضعها فى كل مكان ..

ثم توقفت وقد هبط على الجواب فجأة .. هذه رسالة .. رسالة واضحة جدًا ..

بيت الأشباح لم يكن بيتًا تسكنه الأشباح ، بل كان بيتًا فى قصيدة !

بعبارة أخرى .. بيت الأشباح هو بيت الشعر الذى يتكلم عن الأشباح !

★ ★ ★

فاسمع صرير الريح تبكى حولنا

واسمع صدى الأشباح تعوى فى سقرْ

لا أرى شيئًا غريبًا هنا .. والكلام لا يوحى بشىء .. لا يمكن قراءته بالمقلوب ، ولا يمتلئ بكلمات غامضة موحية مثل (بئر الحياة) و(ثمانون عامًا) فتعرف أن الكنز على بعد ثمانين خطوة من البئر ..

رحت أحرك الورقة على أمل أن يتضح الحل فجأة كما حدث مع بطل (رحلة إلى مركز الأرض) .. لقد حرك الورقة التى كتبت بحروف رونية Runic فإذا بـه يدرك أنها تقرأ بالمقلوب .. وهكذا عرف سر (يوكول سنيفل) الذى يقوده إلى مركز الأرض ، كما فعل الرحالة الأيسلندى ..

لكن لا .. هذه الحيلة لا تجدى هنا ..

ثم خطرت لى فكرة مجنونة ..

ـ « سوف تهديك الأرقام »

هذا ما قاله لى .. ماذا يعنى ؟

هناك نوع مهم من فنون العرافين اسمه حساب الأرقام .. إنه جزء مهم من (الكابالا) .. لاحظ أن هناك كتب (كابالا) هنا ، ومعنى هذا أن مالك الفيلا كان يعرف هذا النوع من الحساب ..

بما أن الحروف العربية تقابل الحروف العربية ، يمكننا أن نقسم الأبجدية كما يلى :

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ
ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع
غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	هـ	و
ى								

الشطر الأول من بيت الشعر يقول :

فاسمع صرير الريح تبكى حولنا

وبتحويلها نحصل علـى : ٢ + ١ + ٣ + ٦ + ٩ + ٥
+ ١ + ١ + ١ + ١ + ٥ + ١ + ١ + ٦ + ٣ + ٢ + ٤
+ ١ + ٦ + ٩ + ٥ + ٧ + ١ = ٨١

لكن يجب الحصـول على رقـم مفـرد .. لـذا يجب جمـع رقمى الناتج فنحصل على ٩ ..

الشطر الثانى يقول :

واسمع صدى الأشباح تعوى فى سقرْ

بتحويلها نحصل على : ٩ + ١ + ٣ + ٦ + ٩ + ٥ +
٨ + ١ + ١ + ٥ + ١ + ٤ + ٢ + ١ + ٦ + ٣ + ٩ +
٩ + ١ + ٢ + ١ + ٣ + ٣ + ١ = ٩٤

بجمع خانتى الناتج نحصل على ١٣ .. هذه يجب جمعها من جديد لنحصل على ٤ ..

إذن الشطر الأول قيمته العددية ٩ وهو ـ حسب مفهوم الأرقام التقليدى ـ رقم التوازن العقلى والذكاء .. الشطر الثانى قيمته ٤ وهو رقم يدل على قوة التحمل والعناد والاكتئاب .. حسب (الكابالا) هناك رقم لكل شخص وهذا الرقم يحفظ فى تعويذة ، وله أهمية خاصة بالنسبة لهذا الشخص .. معظم الدجالين والمشعوذين يستعملون هذا الأسلوب ، لكن أهم من درسوه ساحر يدعى (أجريبا Agrippa) .. الحقيقة أن تخبط هذه الطريقة واضح ، لأن رقم (رفعت) يختلف عن رقم (رفعت إسماعيل) مع أنهما نفس الشخص ، فأى الرقمين نأخذه مأخذ الجد ؟

لكن هذا ليس ما أبحث عنه .. أنا أبحث عن شفرة لا عن نوع من السحر ..

رفعت اللوحة فى لهفة ووضعتها على الفراش ..

أين رقم ٩ ؟ هو ذا ! إنه فى العلية .. هناك عدة أرقام لكن رقم ٩ بالذات رسم على الجدار الذى قام (سليمان) بحفره منذ ساعات !

راح قلبى يتواثب فى صدرى .. إذن أنا أتحرك فى الاتجاه الصحيح .. بيت الشعر قادنى إلى الفتحة فى الجدار ولو فطنت لهذا لما احتجت إلى كل هذه الحيل الكهربية ..

لكن أين رقم ٤ ؟

رحت أنقب بإصبعى وفى النهاية توقفت عند القبو ! بالذات فى نقطة على الأرض جوار جداره .....

القبو هو المكان الآخر الذى يجب البحث فيه .. كنت أشعر بهذا منذ البداية لكن ألعاب (تسلا) الكهربية لم تنذرنى بذلك ..

نظرت إلى الساعة .. إنها الرابعة صباحًا .. لا أستطيع الانتظار حتى تشرق الشمس ثم إننى لن أجازف بالظهور كأحمق أمام (مختار) وزوجته لو كنت واهمًا .. السبب الأهم هو أن القرحة تؤلمنى .. لا أريد أن أقضى الساعات منفردًا مع هذا الألم ..

لم لا أنزل إلى هناك وأجرب بنفسى ؟

هناك احتمال لا بأس به أن يكون مغلقًا .. لابد من غلق القبو كى لا تتسرب الحشرات والفئران .. أنا لا أملك قبوًا لكننى أعتقد أن الأمر كذلك ..

على كل حال لماذا لا أرتدى ثيابى وأجرب ؟

★ ★ ★

- ٥ -

كانت الفيلا خالية مظلمة .. فقط تلك الأضواء الخافتة الساهرة ..

عند نهاية الممر خطر لى أن ما أفعله لا يخلو من قلة تهذيب .. ليس من حقى أن أجول فى هذه الفيلا من دون إذن أصحابها ، ولو شعر بى (مختار) لجن جنونه أو شك فى أمرى ..

لكن هذا كان أقوى منى .. أولاً القبو قريب جدًا منى .. إن (مختار) وأسرته فى الطابق الثانى ولن أزعجهم .. ثانيًا كنت بالفعل أجن شوقًا لرؤية القبو .. أين هذا المكان الذى فاتنا أن نفحصه والذى تتحدث عنه القصيدة ؟ لن أنتظر حتى الصباح لأعرف إن كنت أخرف أم لا .. ثالثًا : من حقى أن أقضى حاجتى فى الليل ، ومن حقى أن أتوضأ لأن صلاة الفجر دانية .. وأنا لا أعرف مكان الحمامات فى هذا الطابق .. إذن من حقى التام أن أستكشف المكان ..

لن يكون هناك ضوء لكن الأمر سهل .. الشموع هى أكثر شىء يمكن أن تجده هذه الليلة .. شموع (سليمان) فى كل مكان .. انتقيت واحدة منها وأشعلتها .. لاحظ أننى كنت أمشى متوكئًا على العكاز واللوحة تحت إبطى مما جعل

حركتى مقيدة فعلاً .. لكنى لم أرد أن أضطر للعودة إلى غرفتى لأعرف تفصيلاً ما من اللوحة ..

نزلت الدرجات التى تقود إلى القبو وبعد لحظات كنت هناك .. إن الباب مفتوح لا كما توقعت ..

أشق طريقى وسط المخلفات العديدة .. أزيح المقعد المتحرك .. أنظر إلى الأرضية على ضوء الشمعة ..

خاب أملى لأن الأرضية كانت عبارة عن طبقة من الأسمنت يبدو أنها صبت مؤخراً .. لا شىء .. الفتحة التى كنت أحلم بأن أجدها والتى تطابق رقم ٤ على اللوحة لا وجود لها أو هى تحت الأسمنت ..

من الممكن أن تجلب عمالاً يحفرون الأرض بالفئوس لكن (مختار) لن يتحمس لهذا الحد ..

(هذا المكان كريه فعلاً.. لا أعرف السبب لكنه يحمل طاقة مقيتة)..

عدت أتفحص اللوحة فى ضوء الشمعة ..

رأيت خطاً باهتاً واضح أنه رسم باليد .. بقلم رصاص باهت حال لونه .. هذا الخط يتجه من الخارج .. من جزء فى الحديقة يحمل رقم ٣٣ إلى البقعة المحددة برقم ٤ .. ويبدو كأنه يمر تحتها ..

هذا احتمال غريب واه لكن يمكن التفكير فيه .. لو أردت أن تفهم الأمر بصورة أفضل فلنفترض أن هناك ممراً رأسياً يبدأ من البقعة رقم ٤ ويقود لأسفل .. فى الوقت ذاته هناك ممر منحدر يبدأ من موضع معين فى الحديقة هو ٣٣ ويتقاطع مع الممر الرأسى .. حرف ٧ مشوه غريب الشكل ..

إذن يمكننى أن أذهب إلى حديقة الفيلا .. يمكننى بشىء من الجهد بلوغ ذات الموضع من دون أن أحتاج إلى حفر القبو ..

والكلب ؟

لا أعتقد أنه سيصحو لأنه فى الناحية الأخرى من الحديقة مقيداً إلى ذلك الحبل الجرار .. بشىء من الحظ لن يملأ الدنيا نباحاً ..

وضعت اللوحة تحت إبطى والشمعة فى يدى واستندت إلى العكاز .

وببطء رحت أصعد فى الدرج .. إن هى إلا نظرة واحدة أطمئن بعدها ..

اتجهت إلى باب الفيلا لأفتحه وأخرج إلى الحديقة .. لكن وجدته موصداً ..

(مختار) لم ينس قبل النوم أن يحكم إقفال الباب من الداخل بعدة مفاتيح. وبالطبع ليست المفاتيح فى أقفالها ..

انتهت القصة عند هذا الحد .. لم يعد بوسعى أن أخرج من الفيلا قبل أن يصحو (مختار)..

على كل حال أعتقد أنها كانت مغامرة خيالية لا يقدر عجوز التوى كاحله - ويحمل شمعة ولوحة - على القيام بها .. استكشاف قاع جب فى الظلام الدامس .. دعك من احتمال أن أنزلق فيدق عنقى أو ألوى كاحلى السليم ، ومن احتمال أن يصحو الكلب فيوقظ الحى بأكمله ..

وجدت الحمام فقمت بما كنت أدعى أننى أريد القيام به .. كان هذا نوعًا من إخلاء الضمير أمام نفسى .. لا يقولن أحد بعد الآن أنى كنت أتسلل بغرض الاستكشاف ..

وسرعان ما عدت لغرفتى ، بينما ظلام الليل لم يعد أسود .. صار رماديًا ...

(الصباح رباح) كما يقولون ..

فقط فليصمت هذا الألم فى معدتى لحظة ..

★ ★ ★

- « يا (مارى الدموية) .. أنا قتلت أطفالك ! »

★ ★ ★

كان اليوم التالى مزدحمًا .. فى البداية أرسل (سليمان) سيارة تسترد أجهزتـه المعقدة ، ثم جلست مع (مختار) أشرح له ما توصلت إليه ..

قال فى غيظ :

- « طريقة غاية فى التعقيد .. لو كان يريد أن يوصل رسالة لجعلها واضحة ..كم من الناس يعرفون طريقة الأرقام هذه ؟ »

قلت فى كبرياء :

- « هو لا يريد أن تصل إلا لمن يعرف هذه الأمور .. باختصار كان ينتظر ساحرًا أو شخصًا يفهم فى السحر .. السؤال الحقيقى هو : لماذا يريد منا أن نصل للقنينة وفتحة القبو ؟ ما هى الرسالة ؟ لن نعرف إلا بالنزول إلى هناك .. »

- « أما هذا فلا .. لن أدمر القبو كما دمرت العلية .. »

عدت أسأله :

- « ما زلنا نبحث عن الإجابة وأرى أنه يجب أن نتصل بقريب (كامل البدراوى) المقيم فى كندا .. هل لديك رقم هاتفه ؟ »

- « لا .. لكن عندى عنوانه .. ربما لو استعملنا البريد السريع أمكننا أن نتلقى ردًا سريعًا .. »

هكذا جلسنا نكتب صيغة الرسالة .. كان خط (مختار) أفضل لذا تولى هو الكتابة بينما توليت الإملاء .. سألته فى البداية عما إذا كان الفتى يجيد العربية ، فقال إنه يتكلمها كأحد المستشرقين لكنه يقرؤها جيدًا .. هكذا رحت أملى عليه :

ـ « الأستاذ الكريم / هانى البدراوى :

ـ « تحية طيبة وبعد..

ـ « فى الحقيقة أجد صعوبة فى شرح المشكلة التى نواجهها هنا ، لكن لنقل إن حياة ابنتى الوحيدة تتوقف على إجابتك بصدق .. نحن نعتقد أن هناك سرًا رهيبًا يختفى وراء فيلا عمك بالمعادى ، ونرغب بشدة فى معرفة أية تفاصيل غابت عنا من قبل ، لأن أى تحرك لنا سوف يستند إلى معلوماتك ..

ـ « هناك أسئلة مهمة .. مثلاً لماذا يخفى عمك قنينة صغيرة فى العلية ؟ لماذا قام بصب الخرسانة فى القبو ؟ هل بنيت الفيلا فوق شىء آخر مثل مقبرة أو شىء مماثل ؟ هل سمعت شيئًا عنها وأنت فى الخارج ؟

ـ « ما هى ظروف وفاة عمك ؟

ـ « مع جزيل الشكر ..

ـ« مختار نجيب المحامى »

وتأكدنا من إرسال الخطاب بالبريد السريع .. فقط فلنأمل أن يكون الفتى مهذبًا ويهتم بنا ..

الآن حان الوقت كى أعود لدارى وأعنى بحياتى قليلاً .. أشعر أنى فى هذه المشكلة منذ قرون .. لكنى طلبت من (مختار) عنوان الخادم العجوز (سلامة) الذى أعتقد أنه ما زال حيًا .. من يعرف أسرار (كامل) أكثر من الطاهى العجوز الذى ظل معه أكثر من ربع قرن ؟

ـ « هذا سهل .. إنه فى (خارصيت).. غريبة .. »

ـ « جميل .. أين فى (خارصيت) ؟ »

ـ « كيف لى أن أعرف ؟ إذهب إلى هناك واسأل .. »

وهو حل لم يبد لى مقنعًا ..

بعد أسبوع وصل طرد مكتنز من كندا .. كان يحوى رسالة مقتضبة ورزمة من الخطابات ..

وانفتحت أبواب الجحيم علينا ..

★ ★ ★

- ٦ -

كان الخطاب المقتضب من الفتى نفسه ، وهو من الطراز الودود المحب للبشر كما هو واضح.

- « مختار نجيب :

- « لا أعرف الكثير عن الفيلا سوى هذه الخطابات. والذى كان يعتقد أن عمي قد جن وأن علينا أن نقطع علاقتنا بـه . فقط أوصانى بأن أعود لمصر لأبيع الفيلا بأسرع ما يمكن لأنه يتشاءم منها. يمكنك الاحتفاظ بالخطابات فهى لا تهمنا فى شىء ، وأرجو عدم الاتصال بى ثانية لأننى لن أفيدك.

-. مهندس : هانى البدراوى »

جن جنون (مختار) من لهجة الخطاب .. هى لا تحوى أية عبارة سب ، لكنها فى حد ذاتها سبة .. دعك من حذف أى لقب قبل اسمه كأنه..

- « كأننى ألعب معه فى الحارة .. »

فتحت المظروف الكبير فوجدت كيسًا من البلاستيك يحوى مجموعة كبيرة من الخطابات كتبها (كامل البدراوى) لأخيه .. واضح أنه كان يمارس نوعًا من

العزف المنفرد أو المونولوج المطول ، لأن لهجة الخطابات لا توحى بأى تفاعل .. لم يكن هناك من يرد عليه على الإطلاق .. فرع الأسرة المقيم وحده فى مصر والذى بدأ يهذى ..

يهذى ؟ كنت أملك من الخبرة ما يقول لى بوضوح إن هذه الخطابات صادقة .. أعرف أنها صادقة ..

هكذا قضينا الساعات نطالع هذه الخطابات .. جو عام من الشؤم والانقباض خيم علينا .. وكان (مختار) يكتفى كل بضع دقائق بأن يصيح :

- « غير معقول .. »

فأكتفى بأن أقول :

- « بل هو معقول جدًا .. »

فى النهاية هتف (مختار) وهو يلهث ويريح ظهره إلى مقعد المكتب لينظر فى السقف :

- « يا للهول !! ما هذا الكابوس الذى اشتريته ! »

- « فقط كى لا تزهو على براعتك فى اقتناص الصفقات .. أنت أيضًا تشرب مقالب لا بأس بها »

ثم بدأت أرتب أفكارى كعادتى :

أولاً : هذا البيت بنى فوق ممر يقود إلى مقبرة اتخذتها تلك الكائنات للحياة .. وعلى الأرجح هناك خادم سابق لها هو الذى بنى هذه الممرات .. أعتقد أن الخرسانة التى صبها (كامل) هى السبب فى أن موجات (تسلا) لم تشعر بشىء غريب فى القبو ..

ثانيًا : علاقة معقدة مشئومة تكونت بين (كامل) وتلك الكائنات ..

ثالثًا : هو قارف خطأ مريعًا حينما سرق تلك القنينة .. وعجز عن إرجاعها ..

رابعًا : كانت طريقته فى تصحيح الخطأ هى ترك هذه الشفرة لمن يأتون بعده ، وقدر أن أحدهم سيقدر على حلها وهو بالتالى يستحق المعرفة ..

خامسًا : يبدو أن الطاقة النفسية لـ (كامل) - ولن أقول شبحه - قلقة وموجودة فى هذه الفيلا وهذا يفسر الوجه المشوه الذى رأيته و(رانية) والذى أعطانى معلومات قيمة .. لابد أنه وجه (كامل) بعد ما تعفن ..

سادسًا : بالتالى نحن نعرف يقينًا أن (كامل) يريد من يرجع القنينة لتلك الكائنات .. يعتقد أن هذا سيزيح الانتقام عن أهله ..

سابعًا : يمكن القول إن ما حدث لـ (رانية) هو نتيجة لتأثير الطاقة النفسية لـ (كامل) .. الفتاة حساسة ولم تتحمل هذا الشعور الممض ، ولعل الغيبوبة الهستيرية التى طالت نوع من الفرار من واقع مخيف .. هذا يميز التفاعل الهستيرى عامة فى نفس هشة .. ويعنى على الأرجح أن إرجاع القنينة سيجعل (رانية) تفيق لأنه سيزيح عنها ضغطًا نفسيًا هائلاً ..

ثامنًا : لن نعرف أبدًا سبب تحرك الأشياء هنا .. أنا أقدر أنها طاقة التحريك عن بعد لدى (رانية) التى تحررت بسبب هذا الضغط النفسى المخيف ، بينما قد يرى آخرون أنها نموذج لظاهرة (بولترجايشت)..

كان هذا هو ملخص الموقف .. لا أعرف السبب لكنى أشعر براحة بالغة عندما أفعل هذا وعندما تتحول أفكارى المضطربة الذائبة إلى نقاط على الورق .. فى أيام الدراسة كنت أضع جداول محكمة جدًا على الورق تتيح لى مراجعة المنهج عدة مرات ، ثم أشعر بالراحة وأننى لست فى مأزق كما أتصور .. هكذا أحتفل أسبوعين وبعدهما أكتشف أننى فى مأزق جديد ، ويكون علي وضع جدول آخر !

قلت لـ (مختار) وأنا أرتجف :

- « تصور أننى فى تلك الليلة السوداء كنت سأنزل إلى القبو وحدى ! هذه شجاعة الجهل ! »

قال فى دهشة :

ـ « أنت كنت ستنزل القبو وحدك ؟ »

ـ « هذه قصة طويلة .. لم ينقذنى إلا أنك أغلقت باب الفيلا بإحكام من الداخل .. »

ثم ساد صمت عميق ..

قلت وأنا انظر فى عينى (مختار) :

ـ « الآن علينا أن نتحرك على ثلاثة محاور .. المحور الأول هو أخذ المدام وابنك و(رانية) إلى بيتك القديم فى (إمبابة) .. ثمة احتمال لا بأس به أن يخف الضغط النفسى على (رانية) فتفيق .. لو أن الموضوع يتعلق بطاقة نفسية ، فهى محدودة بالمكان ويمكن الابتعاد عنها »

فكر قليلاً وراح يداعب قلمًا زنبركيًا بضع دقائق .. تك تتك تك .. ثم قال :

ـ « الشقة هناك خراب تنعق فيه البوم ومن الصعب أن أفرشها من جديد .. يمكن أن آخذ الفتاة لتقيم عند خالتها .. وماذا عن المحور الثانى يا أخ (روميل) ؟ »

ـ « المحور الثانى هو أن نجد الطاهى .. أعتقد أن عنده معلومات لا بأس بها .. مثلاً كيف مات (كامل) ؟ لماذا نرى صورته والعفن يغطيها ؟ »

ـ « هذا سهل .. والمحور الثالث ؟ »

ابتلعت ريقى وقلت :

ـ « المحور الثالث هو أن نرجع هذه القنينة إلى أصحابها ! »

* * *

-٧-

كل هذا جميل ..

لكن هل تتطوع أنت يا عزيزى (رفعت) لهذه المهمة ؟!!!!!

يا سلام .. ولماذا لا تتطوع أنت ؟ لاحظ أن كاحلك سليم ، والأمر يتعلق بسلامة ابنتك ..

إن الخطابات أمامنا وكلمات الرجل لا تقبل اللبس .. تخيل أن تنزل لهم وأنت تتوقع ما قد تجده .. إن هذا يحتاج لأعصاب غير عادية ، دعك من أنها مخاطرة لا شك فيها ..

* * *

لم تكن رحلتنا إلى (خارصيت) سهلة .. انطلقنا إلى طنطا بسيارة (مختار) ومنها إلى تلك القرية الكبيرة الأقرب إلى مركز..

إلا أننا وصلنا عند الظهيرة .. وقد سألنا عددًا لا بأس به من الأشخاص عن المدعو (سلامة عزب) .. هذه من الخصائص المهمة للتغيرات الديموجرافية فى القرية المصرية .. فى الماضى كان يكفى أن تسأل أى طفل يلعب كى يأخذك هناك ، أما قرية اليوم فلم يعد أحد يعرف الآخر .. هى كالمدينة أو

أسوأ .. هذا أتعبنا كثيرًا جدًا وفى كل مرة نحكى القصة كاملة .. أعنى أننا نبحث عن (سلامة) الذى كان طاهيًا لدى أحد الأعيان السابقين ويدعى (كامل البدراوى) ..

فقط بقال شاب ينقل صناديق الورق المقوى المليئة بعلب التبغ تذكر أن هناك (سلامة عزب) .. كل أسرة (عزب) تسكن فى هذا الشارع جوار عامود النور ..

كان هذا بيتًا من الطوب الأحمر يدلك على أن أحد أبنائه سافر للعراق فى فترة ثرائه .. وكان هناك باب خشبى عملاق دققناه فخرج لنا صبى مذعور .. ثم امرأة مذعورة .. ثم شاب قلق نادى رجلا متوترًا ..

فى النهاية اقتادونا إلى غرفة صالون من الطراز الذى ترتفع فيه الأرائك مترين عن الأرض ، حتى لتجد أنك تكافح كى لا تسقط على رقبتك .. كانت هناك سبرتاية وعدة شاى جاهزة ، وسرعان ما راح الرجل يعد الشاى لنا وهو يحاول فهم ما نريد .. بينما من خارج الغرفة نسمع الأطفال يتصايحون وينادون :

ـ « سيدى (بكسر السين) .. رجلان من مصر يريدانك »

أخيرًا دخل (سلامة) الغرفة ..

لم أر فى حياتى شيخًا بلغ منه الكبر هذا المبلغ .. كنت أسمع عن أرذل العمر لكننى لم أتصوره من قبل .. جلده يشبه ورقة قام إنسان بمضغها ثم بصقها .. كان شبه كفيف يتحسس طريقه بعصا غليظة وقد ألقى علينا السلام ثم تربع على الأرض المغطاة بالحصير .. ورأيت تلك التجاعيد المحيطة بفمه والتى تشبه الأكياس (المدككة) .. علامة لا تخفى على الربو المزمن ..

ـ « يقولون إنكم تبحثون عنى .. »

قال (مختار) فى كياسة المحامى الخبير :

ـ « كنا قلقين عليك وأسعدنا أن نعرف أنك بخير والحمد لله .. »

ـ « نحمدوه .. »

ثم ساد صمت ثقيل قطعه بأن صاح ينادى الرجل الذى اتضح أنه ابنه البكر :

ـ « هات سيجارة يا (زكريا) .. »

وهى معجزة أخرى .. أعتقد أنه لو جذب نفسًا واحدًا من الدخان لمات أمامنا .. لكن (زكريا) أخرج لفافة تبغ ووضعها بين شفتيه ، ودسها فى لهب السبرتاية ثم ناولها

لأبيه .. فسحب منها نفسًا نهمًا طويلاً وألقى بالرماد على الحصيرة ..

قال (مختار) بنفس الكياسة :

ـ « هناك رجل من الأعيان كنت تعمل عنده .. اسمه (كامل البدراوى) .. أنا الذى ابتعت الفيلا الخاصة به من ابن أخيه (هانى) .. نحن لم نلتق لكننى سمعت عنك الكثير .. هناك أسئلة عدة أريد سؤالها .. »

بدا على الرجل أنه يفكر .. كنت ترى نحت وجهه يطل من بين خيوط دخان السيجارة كأنه طوطم هندى أشعلت تحته النيران .. ثم قال دون أن ينظر لنا :

ـ « (كامل البدراوى) ؟ هل قلت إن اسمه (كامل البدروى) ؟ لا أعرفه .. »

قلت وأنا أشعر بأننى سأجن غيظًا :

ـ « كنت طاهيًا لديه وقد ظللت مخلصًا له أربعين عامًا أو أكثر .. هو استقر فى الفيلا عام ١٩٥٩ .. وكنت أنت معه من قبلها .. لا بد أن علاقتكما تجاوزت أربعين عامًا .. وأنت من أشرف على دفنه .. »

قال من جديد بذلك الوجه المغلق :

ـ « لا أعرفه .. »

تبادلنا النظرات .. إما أن هذا خرف الشيخوخة أو هو قرر أن ينسى هذه الحقبة من حياته .. هكذا نهضنا فى كثير من الحرج ووضعنا أكواب الشاى على الصينية ، وقال (مختار) :

ـ « إذن اسمح لنا بالرحيل .. فلابد أن هناك سوء فهم . »

★ ★ ★

ـ ٨ ـ

قال (زكريا) الابن الذى بدا أقرب للتفاهم :

ـ « سوف نتناول الغداء معًا .. أنتما قطعتما مشوارًا طويلاً .. »

ـ « شكرًا .. لقد انتهت مهمتنا .. »

واتجهنا للباب لنركب السيارة التى جلس فوقها نحو ٣٦٥٩٦٨٥٣ طفلاً .. فصاح بهم (زكريا) والتقط قالب طوب يهدد بقذفه عليهم ، من ثم تفرقوا فى كل صوب فى ثوان .. ثم قال لنا همسًا وهو ينظر إلى الخلف :

ـ « معذرة .. إنه أرذل العمر كما تعرفان .. لكن تلك الفترة سيئة بالنسبة له .. »

قال (مختار) وهو يضع نظارته الشمسية التى تعطيه سمت رجل المخابرات الخطير :

ـ « أعتقد أنه لا يريد الكلام .. هو لم ينس شيئًا .. »

قال (زكريا) بطريقته الودود الميالة للاعتذار ، وبنوع من الهمس المحرَج :

ـ « إنه مُرهق .. أحيانًا يحكى لنا هلاوس عن عفاريت كانت تعيش تحت الفيلا .. يقول إن سيده (كامل) تعفن فى ليلة واحدة وإن الطبيب لم يصدق أن هذا كله تم فى ليلـة .. أحيانًا يقول إنه كان خادمًا لتلك العفاريت وإنـه كان يخدر سيده لينزل لها ويلبى طلباتها .. ويقول إن السخرية الكبرى هى إن سيده عندما مات دفن معها ! طبعًا نحن نسمع هـذا الكلام بأذن ونخرجه من أذن .. هذه سن لا نلوم صاحبها على ما يقول .. فقط أردت أن أعتذر لكما .. ليس أبـى فظًا .. فقط هى السن .. »

قال (مختار) وهو يبتلع عواطفه :

ـ « فلترنا نحن فى هذه السن لو عشنا .. سنكون كالأطفال الصغار .. »

سألت (زكريا) فى فضول :

ـ « هل كان يقول أشياء أخرى عن هذه العفاريت ؟ »

قال باستمتاع يجمع بين السخرية والشعور بالأهمية :

ـ « الكثير .. لم يكن يتكلم إلا عنها حتى نصحتـه أن يتوقف حتى لا تسوء سمعتنا هنا .. مثلا كان يقول إنه كـان يقابلها وهو يمشى للخلف .. ويقول إنه لم يكن يرفع عينيـه نحوها قط ، وبهذا كان يضمن ألا تفتك به .. »

ثم حك رأسه وقال :

ـ « إنه يبكى كثيرًا جدًا .. يقول إنه ارتكب من الآثام ما يعجز الخيال عن تصوره ، لذا يطلب منا أن ندعو له بالرحمة .. »

ـ « فليرحمنا الله جميعًا .. »

وانطلقنا بالسيارة وأنا أحبس أنفاسى بينما (مختار) يدور بها للخلف ، و(زكريا) يقف بانتظار رحيلنا وعيناه لا تفارقاننا ..

لم أستطع الكلام حتى رأيت معالم الطريق السريع من جديد .. لم أتكلم إلا عند (بركة السبع) أو بعدها .. لـم أتحمل أكثر فانفجرت :

ـ « هل فهمت ما قاله هذا الفتى ؟ القصة تتخذ منحنيـات لم نتصورها ! »

قال (زكريا) فى برود وهو يراقب الطريق :

ـ « لن نأخذ كلام هذا العجوز بجدية .. يا لك من حمار ! »

مذهولاً نظرت لأفهم لماذا يسبنى فاتضح أنـه يشتم سـائق سيارة نصف نقل كادت تصطدم بنا من الخلف .. وأخرج رأسـه يصيح فى الرجل الذى سبقنا الآن :

ـ « لقد أخذت رقمك ! وحياتك سوف أريك من أنا ! »

لا وقت لهذه الألعاب يا (مختار) .. فيما بعد يمكنك أن تستعرض نفوذك وبراعتك فى الشجار .. الآن دعنى أتكلم بلا مقاطعة :

ـ « أنا بالعكس أعتقد تمامًا أن كلام العجوز حقيقى .. يمكننا أن نرتب الأحداث كما يلى .. هذا العجوز كان على علم بهذه الكائنات .. ربما منذ اللحظات التى اشترى فيها (كامل) الأرض وبدأ البناء .. أعتقد أنه كذلك كان يعرف القبر الذى تعيش فيه .. هل هو الذى بنى تلك الفتحة فى القبو ؟ لست متأكدًا .. لا شك أنه كان دائم التردد على العمال وكون صداقة معهم ولربما استطاع ترتيب صنع هذه الفتحة معهم .. لعله قال إن هذا يسهل نزح المياه أو أى شىء من هذا القبيل .. وعاش العجوز مع سيده فى البيت .. السيد وجد المقبرة وتعامل مع الكائنات ، وقد حسب أنه يخدع خادمه ، بينما الخادم كان يخدع سيده . أعتقد ان كليهما كان يستعمل أقراص المنوم لينوم الآخر .. كان موعد (كامل) هو مساء السبت بينما موعد الخادم كان يومًا آخر .. ثم تورط (كامل) فى موضوع سرقة القنينة والجلطة .. إلخ .. لا شك أن (سلامة) وجد وقتًا لا بأس به كى يفعل أى شىء يريد فى تلك الآونة .. ثم توفى (كامل).. ولو صدقنا القصة لقلنا إنه تعفن فى ليلة واحدة؛

وهى من علامات الاتصال بالشيطان الشهيرة حسب كتب القرون الوسطى .. »

ـ « وماذا لو لم نصدقها ؟ »

ـ « عندها يكون (سلامة) قتل سيده بأمر من تلك الكائنات ! فى جميع الظروف كان (سلامة) هو المسئول عن دفن سيده الذى لا أقارب له فى مصر .. هنا تولى دفنه فى المقبرة المشئومة بالذات .. كانت هذه أوامر الكائنات .. لا بد أنهم كانوا يريدون الجثة للتنكيل بها .. »

ـ « كيف يمكنه عمل هذا بينما مقابر الأسرة معروفة ؟ »

قلت وأنا أجفف عرقى :

ـ « أنت تتحدث عن رجل امتلك كل المفاتيح وصارت له كل الصلاحيات .. يمكنه أن يزعم أن الفقيد أوصاه بدفنه فى هذه المقبرة بالذات .. يمكنه أن يزعم أن ابن خال عمة الفقيد مدفون هنا ، وهما لم يفترقا فى طفولتهما ولا يجب أن يفترقا بعد الموت .. أنتم تعرفون أن الفقيد كان يحب ابن خال عمته بجنون .. »

قال وهو يحك ذقنه فى حركة عصبية :

ـ « لحظة .. أنت تعرف أن (كامل) سد فتحة القبو بالخرسانة .. كيف يتمكن (سلامة) من النزول ؟ »

ـ « من جديد الأمر سهل .. هو يعرف كل شيء عن الممر البديل الذى يبدأ فى الحديقة .. الممر الذى كدت أنزل فيه بحماقة .. دعك من أنه يعرف المقبرة ويمكنه التسلل لها »

ظل يقود وهو متصلب الوجه .. ثم غمغم :

ـ « رباه ! »

ـ « فعلاً .. القصة شنيعة .. لكن أعتقد أن (سلامة) قد تاب بعدها .. قرر أن يتحرر من هذه الكائنات بعد ما رآه حل بسيده .. بالتأكيد لم يتمن أن تتعفن جثته فى ليلة واحدة ، أو أن يدفن مع ذات الكائنات الشنيعة .. لهذا تأكد من بيع الفيلا ورحل إلى قريته حيث تحول إلى مريض وسواس قهرى .. لا تتملكه إلا فكرة تلك الكائنات والأيام الشنيعة التى عاشها معها .. إن الذعر أفقده كتمانه فراح يتكلم ويتكلم والنتيجة أنه لا أحد يصدق حرفًا .. تثير رعبه ذكرى تلك الكائنات ، ويثير هلعه ما ينتظره من عقاب الله بعد الموت .. إنه إنسان مسكين .. مسكين .. »

وفى صمت ورهبة واصلنا رحلة العودة ..

★ ★ ★

ـ ٩ ـ

قال (سليمان الخولى) :

ـ « سأنزل أنا ! »

كان جالسًا فى لوبى الفيلا وقد وضع قدح الشاى على ركبته كعادته عندما يستعمل يديه للكلام .. بدا لى كأن (على مصطفى مشرفة) عند (مختار) يشرب الشاى ..

حككت صلعتى كأنما أنا أستجلب الأفكار ، وقلت فى هدوء :

ـ « يا بنى .. أنت لا تعرف عن أى شيء تتكلم .. »

قال (مختار) وقد اتسعت عيناه :

ـ « دعه يا (رفعت) .. هو ليس طفلاً .. يمكنه أن يحدد خياراته .. »

صحت فى (مختار) وقد فقدت أعصابى :

ـ « كف عن لعب دور التاجر الأريب لحظة واحدة ! هذا الفتى يتحرك من منطلق حماس الشباب ، مع الكثير من الرغبة فى الاستشهاد .. إنه ليس مسئولاً عن أقواله »

قال (سليمان) فى ثبات :

ـ « هـذا هو بيت القصيد .. الاستشـهاد .. أنت رأيتنـى يا د. (رفعت) ورأيت كيف ابتلعت علبة من دواء السكر دون أن يرف لى جفن .. لم تكن حياتى تساوى شيئاً وقتها ، وبدا لـى أن فقدها لا يختلف عن فقد ربع جنيه .. اليوم أنا أعرف قيمة حياتى جيداً وسوف أضحى بها فى المكان الصحيح .. »

ـ « أنت مجنون .. »

ـ « وأنت مصاب بعقدة أبوة نحوى .. »

هذا صحيح .. لقد أصاب كبد الحقيقة .. يبدو أننى فى السن التى أشتهى فيها أن يكون لى ابن فى سنه .. ابن لامع مثله .. هذه هى اللحظة التى أنذرنى بقدومها كل الذين نصحونى بالزواج منذ عشرين عاماً .. ستندم بعد فوات الأوان .. ستكون بحاجة لابن يصادقك ثم يغمض عينيك ويواريك القبر عندما تموت بإذن الله .. كنت أقول لهم إن أولاد الحلال كثير .. بالتأكيد لن يلقوا بجثتى فى أقرب مصرف ..

لست نادماً ولا ألوم أحداً على أى شىء .. فقط أنا أحب هذا الفتى ..

صاح (مختار) وهو يثب من مكانه :

ـ « كفى يا (رفعت) .. هذا الفتى متحمس وسوف ينجح .. أهنئك يا بنى »

وانقض على الفتى فطار القدح فى الهواء ليستقر على السجادة وسروال الفتى ..

قلت فى غيظ :

ـ « لقد بدأ المرح فعلاً .. »

★ ★ ★

كنا الآن نقف فى الحديقة .. يبدو أننى كنت متفائلاً بصدد ذلك الكلب الذى اعتقدت أنه لن يشعر بى فى تلك الليلة السوداء .. لقد شعر بى فراح ينبح ويتملص وينزلق على الحبل الذى يسمح له بالحركة فى خط واحد .. لو خرجت فى تلك الليلة لفضحنى ..

كنا الآن فى الثامنة مساء السبت .. لماذا السبت ؟ لأن كل شىء حدث هنا حدث فى مساء السبت .. كانت تلك هى ليلة اللقاء بين (كامل) و(أفسيس) ومن معه .. أعتقد أن هناك سراً فى ليلة السبت يهم هؤلاء .. على كل حال ، السبت مهم فى طقوس السحر فى كل مكان ..

يقف (سليمان) ممسكًا الكشاف وفى يده القنينة .. هناك فى الحديقة جوار جدار الفيلا عند النقطة التى رأيناها على الخارطة .. البقعة رقم ٣٣ ..

عندما أزحنا العشب قليلاً رأيت تلك الفتحة .. فتحة تذكرنى بنوافذ هؤلاء الذين يسكنون تحت الأرض .. يمكنك أن تلقى نظرة لو نمت على بطنك وألصقت وجهك بالأرض ..

أزحنا العشب أكثر فرأينا أنها مغلقة بقضبان .. فى كل مكان تجد هذه القضبان التى تبعث التشاؤم والرهبة .. كأنك تحبس وحوشًا بالداخل ..

والآن عليك أن تدخل لها !

مد (سليمان) يده لينزع القضبان فاستجابت بسهولة .. ثغر الفتحة القبيحة .. فاغر ينتظر من يثب فيه .. وبالداخل الظلام دامس .. كما توقعنا ..

قلت دون أن أنتظر تعليقًا :

ـ « فى الخارج يجدون الكثير من الثعابين فى هذه الأنفاق .. »

صاح (مختار) فى عصبية :

ـ « يا أخى لا توتره ! الرجل رابط الجأش متماسك وأنت تدس السم فى كل كلمة ! »

قلت لـ (سليمان) وأنا أربت على كتفه :

ـ « سوف نتبع النصائح الأولية التى سمعناها .. بمجرد أن تجد نفسك فى البئر سوف تتحرك بظهرك .. تمشى للخلف .. لا ترفع عينك أبدًا ولا تر أى شىء .. هذا يذكرنى بـ (أورفيوس Orpheus) فى الأساطير الإغريقية عندما عبر إلى (هيدز Hades) كي يسترد زوجته الميتة ، وافق (بلوتو) لكنه اشترط عليه ألا يلتفت للخلف أبدًا .. كانت غلطته عندما دنا من عالم الأحياء أنه التفت للخلف كى يتأكد من أن زوجته معه .. هكذا فقدها للأبد .. فقط أترك القنينة فى القبر ثم عد من حيث جئت .. إن كانت هذه النصائح قد أجدت مع (سلامة) فلسوف تجدى معك .. »

شعرت به وقد بدأ يتوتر .. العرق ينمو على جبينه .. هذا طبيعى .. يمكنك أن تظل شجاعًا حتى هذه اللحظة .. عندما تدرك أنك ستنزل إلى قبر وحدك كى تقابل شياطين.. هنا فقط تتساءل : هل تسرعت ؟

قلت وأنا أتراجع للخلف :

ـ « تذكر أنك ستعبر ممرًا لم يقطعه أحد منذ زمن .. أعتقد أن (سلامة) فقط عبره قبل أن يغادر الفيلا .. كن حذرًا .. اتل ما تحفظه من الآيات القرآنية »

هز رأسه ثم ركع على ركبتيه .. وبسهولة حشر جسده النحيل فى الفتحة .. وبعد ثوان كان قد توارى .. ابتلعته النقطة ٣٣ ..

* * *

ـ « يا (مارى الدموية) .. أنا قتلت أطفالك ! »

* * *

نمضى الحياة وكلنا فى دربها ∴ ونغيب عنها .. والخطى لا تندثر

من قبلنا يمشى الألى جاءوا بنا ∴ من بعدنا يفنى ملايين البشر

* * *

نصف ساعة قد مرت ونحن نقف فى الظلام ..

عواء الكلب .. ليت هذا الوغد يخرس قليلاً.. هذا الـ .. هذا الكلب .. كيف تسبه وهو بالفعل كلب ؟

إنه يوتر أعصابى .. بالفعل يوترها .. لا أعرف لماذا ينبح ؟ هل من أجلى لم من أجل ما يحدث بالداخل ؟ من أجل شىء لا نعرفه ؟ ولو كان كلبًا حقيقيًا كتلك الكلاب المحترمة فى السينما لأعفانا من هذه المهمة .. كان بوسعه أن يحمل القلينة بنفسه داخل النفق ويتركها ..

قال (مختار) :

ـ « وبعد ؟ »

ـ « وبعد ماذا ؟ »

ـ « تأخر الولد .. »

كنت أخشى أن يقول هذا ، فهذا يجعل الأمر رسميًا بينما لو لم يقلها لأقنعت نفسى أننى هستيرى متوتر .. الآن نحن فى مأزق .. إما أن يدخل واحد آخر ونجازف بأن نتسرب الواحد تلو الآخر فى هذا الثقب ، أو نطلب عونًا .. لا أدرى ..

رحت أروح وأجىء فى قلق ..

لو صدقنا خطابات (كامل) وأنها لم تكن هلاوس مجنون ، لكان الفتى الآن يواجه أشنع مشاهد يمكن تخيلها .. أرجو أن يتذكر نصيحتى ولا ينظر لشىء .. هذا يحفظ عليه سلامه العقلى على الأقل ..

فجأة هتف (مختار) وكان لهتافه طابع النصر ..

وعند قدمى رأيت يدى (سليمان) تبرزان .. ثم وجهه .. كان قذرًا للغاية يتصبب عرقًا .. لكنه كان سليمًا .. ممتقع الوجه لكنه حى ..

جذبناه ليخرج ثم جررناه بعيداً عن الفتحة ..

جلس على العشب يلتقط أنفاسه ويلهث .. وكان فى حال غير طبيعية .. يركل ويتلوى ويلهث بلا انقطاع حتى حسبت بعقله الظنون .. رفعت الكم عن ساعده وتحسست نبضه .. لا يبدو أن هناك ما يقلق .. لديه الكثير من الأدرينالين لا أكثر ..

فى النهاية سأله (مختار) وقد بدأ يهدأ :

- « هل تركت القنينة ؟ »

هز رأسه أن نعم ..

- « وهل رأيت شيئاً ؟ »

هز رأسه أن لا .. ثم تكلم بصوت مبحوح :

- « شعرت بوجود شىء أو أشياء لكنى لم أرفع رأسى قط .. رائحة غريبة هى مزيج من اللحم العفن والكبريت .. كنت أخشى أن أضل طريقى .. أخشى الا أعود .. لكن لم يحدث شىء .. أسوأ ما حدث لى هو الرعب .. كان الموقف مخيفاً بحق .. »

لا ألومه على ذلك ..

لقد انتهينا وأرجعنا القنينة التى سرقها (كامل) يوماً ما .. فهل انتهت المشكلة ؟

هل تفيق (رانية) من غيبوبتها ؟

* * *

جرس الهاتف فى اللوبى لا يكف عن الرنين ..

اتجه (مختار) ورفع السماعة .. أصغى لبعض الوقت ثم قال :

- « لا .. كنا فى الحديقة .. نعم .. نعم .. ماذا ؟ سآتى حالاً !! »

ثم هتف بنا من قبل أن يضع السماعة :

- « (رانية) فتحت عينيها وتكلمت !.. (رانية) أفاقت من الغيبوبة !! »

* * *

ـ ١٠ ـ

كانت المفاجأة مذهلة .. كنت أتوقع شيئًا كهذا لكن ليس بهذه السرعة .. كما قلت أعتقد أننى سيئ الطالع ولا شىء يحدث معى بسهولة أبدًا ، دعك من أننى لا أعتقد أن الحياة (بابا نويل) مهمته أن يأتى بالهدايا لنا .. للدقة هى ليست خطرًا داهمًا على طريقة (كافكا Kafka) و(أبو العلاء المعرى) ، لكنها كذلك ليست (بابا نويل)..

كان الأمر بالنسبة لى واضحًا تمامًا .. وقد أبديت شكوكى على الفور :

ـ « يجب أنها نستوثق من أنها لم تتغير وأنها ليست فى قبضة استحواذ ما .. »

صاح (مختار) فى حنق :

ـ « لو أنك تكف لحظة واحدة عن لعب دور غراب البين ، فلربما وجدت أن الحياة تستحق .. »

هكذا اندسسنا فى سيارته وانطلقنا نحو (حدائق الزيتون) حيث تقيم خالة الفتاة ..

برغم المشوار الساخن لم نتبادل كلمة واحدة طيلة الطريق ..

هذا البيت عتيق يوحى بالألفة .. أعترف أن فيلا المعادى تلك لا تريحنى ، وقد قلت لنفسى إن سبب هذا هو عدم التعود ، لكنى بالفعل شعرت براحة فى ذلك الجو الحميم .. لقد صارت الفيلا كائنًا مشئومًا كليًا .. يبدو أننى سأقتنع فى النهاية بمنطق أفلام (توجو مزراحى) القديمة حينما يثرى الفقير ثم يكتشف أن حياة الفقر كانت أجمل ، وفى النهاية يعود لبيته القديم !.. هذا هو منطق أفلام عصر الباشوات الذى يقول إن الثراء سيئ وقبيح ، ومن الأفضل أن نتجنبه ونتركه للباشوات .. دعهم يتعذبوا ويتألموا فى ثرائهم ولننعم نحن بالفول والطعمية ! .. الغريب أننى لم أعد أجد هذا المنطق سخيفًا فى هذه اللحظة بالذات .. الأثرياء يعيشون فى بيوت تسكن تحتها الشياطين فلا تحسدوهم يا سادة!

نسيت أن أقول إننا جلبنا (سليمان) معنا .. بشكل ما هو صار من الأسرة .. ولم يجرؤ أحد على طرده بدعوى أن (هذه أمور عائلية) .. دعك من أننى أنا نفسى لست من الأسرة ، والمنطق الذى يسمح بطرده يسمح بطردى !!

كان مذهولاً صموتًا ولا ألومه .. أعتقد أنه جاء معنا لأنه أوهن من أن يعترض ..

وفي الداخل كان المنظر حميمًا فعلاً.. الجارات ملتفات والأم أشرق وجهها لدرجة أنها لم تشتم الطفل منذ ربع ساعة كاملة ..

فى الفراش تجلس (رانية) كملكة متوجة .. شاحبة هزيلة لكنها بخير .. وكانت تبتسم بتلك الطريقة الواهنة الفخور التى تبتسم بها الأم التى ولدت توءمين منذ نصف ساعة .. فقط لم يكن التوءمان معها فى الفراش .. طبعًا شعرها مبعثر وآثار الشريط اللاصق على قنطرة أنفها لكن حمامًا دافئًا سيزيل كل شىء . وكما يقولون فى العامية : « ما دام العود موجود .. اللحم يجود » .. المهم أن تكون هى نفسها حية ..

فيما بعد .. فيما بعد يمكننى التأكد من أن دمها ليس أخضر ، وأن عينيها لا تلمعان فى الظلام أو أنها لا تميل للحم النيئ .. هذه أشياء يمكن معرفتها فيما بعد .. ليس الآن ..

انتحيت بالممرضة وسألتها عما حدث بالضبط ، فقالت وعيناها دامعتان تأثرًا :

ـ « لا شىء .. فجأة سعلت ثم مدت يدها تنتزع أنبوب (رايل) من أنفها فساعدتها .. وإذا بها تجلس .. بكت لدقائق على كتفى ثم أفاقت تمامًا .. »

ثم تمخطت مما دلنى على أنها متأثرة فعلاً..

نظرت إلى الفتى (سليمان) .. لو كان هذا صحيحًا فإن هناك شخصًا واحدًا له الفضل بعد الله تعالى .. وهذا الشخص مُهمل الآن لا يشعر به أحد ..

كان الحفل العائلى صاخبًا .. ألف (طانط) وألف (عمو) من الذين يأتون من تحت الأرض .. وعرفت أن الأمر جد خطير عندما تزايد غاز ثانى أكسيد الكربون عدوى اللدود .. عندما أموت لن يتركونى وشأنى .. سيحضرون ثلاثة من هؤلاء القوم يدفنونهم فوقى ..

وأخيرًا جاء (مختار) يقتاد امرأة بدينة تضحك حتى أوشكت أذناها أن تتمزقا وقال لى :

ـ « مفاجأة يا (رفعت) ! خمن من جاء ليرى (رانية) ؟ »

هززت رأسى فى بلاهة فقال :

ـ « مدام (محفوظة الفقى) !! (محفوظة الفقى) ! كنت أعرف أنك ستفرح ! »

طبعًا من الواضح أننى أعرفها وكنت أتلوى فى الوديان المقفرة وأعوى مناديًا اسمها .. يجب أن أفر .. يجب ..

قلت لـ (سليمان) الذى يقف كالأبله فى ركن :

ـ « أعتقد أن هذه القصة قد انتهت على خير .. تعال نفر من هنا قبل أن يعرفنى على مدام (ليلى الدلجمونى) .. »

قال (سليمان) من دون أن يبتسم :

ـ « وحياتك موجودة ! هناك واحدة بهذا الاسم فعلاً .. »

ـ « إذن تعال نخرج للهواء الطلق .. »

وفى الشارع المظلم مشينا .. طبعًا لا مجال لكى نطلب من (مختار) أن يرجعنا لذا كان علينا أن نجد طريقة للعودة إلى (المعادى) حيث تركت سيارتى .. كيف ؟ تذكر أن هذا عصر ما قبل مترو الأنفاق ..

مشينا صامتين وكل منا يضع خطة العودة على طريقته ، وفجأة سمعنا سيارة قادمة من الخلف وارتمى ظلانا على الأرض طويلين مخيفين .. ثم سمعت صوت (مختار) يصيح :

ـ « سأوصلكما يا (رفعت) .. لم أنسكما ! »

ممتنين ركبنا معه ، وانطلق بالسيارة وهو يتحدث فى حرارة عن الحل الموفق وعن هذه الليلة التى لن ينساها ما عاش .. تحدث كذلك عن فضل (سليمان) عليه .. كان يحسبه مجرد

أحمق آخر مثل .. مثل .. ثم ابتلع كلامه وواصل القيادة فى صمت وبسرعة جنونية ..

قلت له :

ـ « على كل حال يمكننا أن نقول بلا خوف إن الفيلا خالية من الأشباح .. هذا هو Reductio ad absurdum كما قلت لك من قبل .. »

قال فى غباء :

ـ « عم تتحدث ؟ لا أذكر هذا المصطلح .. »

قال (سليمان) وهو ينظر خارج النافذة إلى معالم الطريق :

ـ « Reductio ad absurdum .. أى البرهنة على غباء الفرضيات السابقة .. »

قال (مختار) وهو يمط شفته فى استهتار :

ـ « لا أبالى بهذه الرطانة .. ما يهمنى أن البنت بخير .. ولسوف أتخلص من الفيلا مسكونة أم لا .. لقد اقتنعت »

مررنا بمحل عاديات وتحف صغير راق فأوقف السيارة عنده ، وهتف :

ـ « سأشترى لك هدية على ذوقى .. »

حاول الفتى أن يتملص لكن (مختار) كان مصرًا كالخرتيت .. لا وقت لهذا الكلام .. نريد العودة إلى ديارنا بالله عليك لكنه أصر على هذا ..

قلت للفتى باسمًا :

ـ « لا تحاول مع الأستاذ (مختار) .. إلا لو كان بوسعك أن تقاوم الفيضانات والأعاصير .. دعك من أنه نصر عظيم أن تنجح فى جعله يخرج مالاً من حافظته .. »

ودخلنا المحل .. لم يكن الفتى مهتمًا بأى شىء من هذه الأشياء .. لا يريد مزهرية أو مروحة صينية أو جرة يونانية أو مطفأة تبغ أو تمثالاً من عاج .. لقد بدأ الليلة بالنزول إلى قبر به شياطين ، واستكملها بمدام (ليلى الدلجمونى).. ثم أنهاها بالوقوع فى قبضة (مختار)..

وقفت أشاهد المعروضات .. كانت هناك لافتة كبيرة كتب عليها :

Caveat emptor

الحقيقة أنها عبارة جديدة على .. هل هى بالإيطالية ؟ سألت بائعة شاحبة هناك عن معناها فهزت كتفيها وقالت :

ـ « لا أعرف .. الخواجة صاحب المحل علقها .. »

هنا قال (سليمان) وقد سمع محادثتنا حيث وقف فى ركن المحل :

ـ « إنها باللاتينية .. معناها أن الشراء فى النهاية مسئولية المشترى .. حرفيًا معناها (فليحترس المشترى) .. »

فى النهاية عاد (مختار) وهو يسب ويلعن وطلب منا أن نلحق به ..

ـ « هؤلاء لصوص .. كان الأكرم لهم أن يخرجوا على الناس شاهرين السيوف بدلاً من عرض مطفأة تبغ بـ ٣٥٠ جنيهًا .. »

تبادلت والفتى نظرة ذات معنى وعدنا للسيارة ..

أخيرًا وصلنا إلى الفيلا .. كان (سليمان) قلقًا يرغب فى العودة لداره بسرعة ، لهذا ودعت (مختار) .. ولاحظت فى خبث أنه خائف من المبيت فى الفيلا وحده .. هذا يسعدنى بالطبع ويعطينى بهجة سادية وحشية .. قلت له بلهجة عابرة وأنا أنصرف مع الفتى :

ـ « عندما تسمع خطوات على الدرج ليلاً فلا تغادر غرفتك .. إن هذه الكائنات لن تتوقف أمام الجدران .. أريد أن تكون حذرًا وأن تتذكر أى هول يقبع تحت الفيلا .. »

قال لى فى حقد :

ـ « سأتذكر .. »

ـ « هذا جميل .. إن القبور تعج بالذين لم يتذكروا .. أقترح كذلك ألا تنظر فى أية مرآة وأنت وحدك .. ذات مرة عرفت امرأة كانت .... »

ـ « كفى !! »

قلت قبل أن أرحل غير مأسوف على :

ـ « سوف أتصل بك هاتفيًا .. ثمة أمور يجب أن نتكلم عنها باستفاضة .. »

* * *

ـ ١١ ـ

مساء السبت التالى ..

لقد أمضى (مختار) أسبوعًا رهيبًا بين المبيت فى الفيلا أو عند أخيه .. لكن (رانية) تتحسن باستمرار ..

أجلس مع (مختار) فى لوبى الفيلا .. ضوء الأباجورة هو الضوء الوحيد فى الغرفة ، والنافذة مفتوحة .. هو مغتاظ منى يريد نسف رأسى وأنا أحاول إقناعه بالعكس ..

ـ « أنت مغفل يا (رفعت) .. المشكلة أنك تعتقد أن التشاؤم يجعلك تبدو أكثر ذكاء ! »

قلت له فى صبر :

ـ « أؤكد لك أننى على حق .. هذه الأشياء لا تفوتنى بعد كل هذه التجارب .. الفتى لم يدرس اللاتينية فى حياته .. أنا متأكد من هذا .. دعك من أنه لم يفهم جملاً لاتينية بسيطة جاءت على لسانى فى بداية معرفتى به .. الأسبوع الماضى عاد من القبر وهو يعرف اللاتينية بشكل لا بأس به .. هل يذكرك هذا بواحد آخر ؟ واحد وجد نفسه يجيد اللاتينية فجأة ؟ يقولون إن عليك أن تشك فى أى شخص يجيد اللاتينية باستثناء القس الكاثوليكى .. إن اللاتينية مهمة لقراءة كتب السحر كما تعلم »

صاح فى عصبية وهو يضرب الأريكة بقبضته :

ـ « وهل هذا كاف ؟ »

ـ « والجرح فى ساعده ؟ لقد كشفت عن ساعده لدى عودته لأقيس له النبض فوجدت ذلك الجرح .. هذا الفتى قابل الكائنات وأخذت منه عهد الدم بالضبط كما حدث مع (كامل) .. وهو خادمها الآن .. ثم ماذا عن الكلب ؟ »

الكلب الذى مات مسمومًا منذ ثلاثة أيام .. لم يعرف (مختار) هذا إلا فى الصباح عندما خرج للحديقة فوجد البائس ميتًا وجواره تناثرت قطع من اللحم المفروم .. (مختار) اعتقد أن هذا لص .. لكنى كنت أملك احتمالات أخرى .. هناك شخص عرف كم أن الكلب مزعج .. وكم أن الكلب سيعوق نزوله من النقطة ٣٣...

ـ « ليس لديك دليل على أنه فعل هذا .. »

ـ « سوف يأتيك الدليل حالاً .. »

ونظرت إلى ساعتى .. أعتقد أن الوقت قد حان .. ثلاثة أكواب شاى وقدحان من القهوة .. وعشر شعرات انتزعها (مختار) من شاربه .. لا بد أن هذا الوقت كاف ..

فجأة دوى صوت جرس الإنذار ...

إن (عزام) الكهربائى قد أدى عمله ببراعة .. لقد أقسم لى بالطلاق - كعادته فى كل شىء - أن الجرس يدق بمجرد أن يحاول أحدهم فتح الباب الحديدى .. يبدو أن جسد المتسلل يغلق دائرة ما ، من ثم يدق الجرس ..

ليس عملاً رديئًا بالنسبة لساعتين لا أكثر ..

صحت فى (مختار) أن يركض ليلحق بالمتسلل فأنا لن أستطيع مع حالة قلبى وصدرى وكاحلى . هكذا اندفع إلى الخارج بثلاث وثبات .. بعد ثوان سمعت صوت عراك وسمعت رجلاً يصرخ .. ثم جسدًا يسقط على الأرض ..

كنت قد وصلت إلى الحديقة .. لأرى ثلاثة أجساد فى الظلام .. ثلاثة ؟ الأول كان (مختار) .. الثانى كان الفتى النحيل .. الثالث كان شيئًا مقيدًا لا يتحرك ..

دنوت أكثر وأشعلت قداحتى لأرى ..

رأيت (مختار) يرقد فوق (سليمان) فى وضع تثبيت الكتفين الشهير ، وهذا الأخير يئن محاولاً الفرار .. طبعًا كان (مختار) أقوى وأكثر غضبًا لذا كانت نتيجة الصراع محسومة .. الجسد الثالث كان لفتاة مراهقة فى الثالثة عشرة من عمرها .. مقيدة القدمين والساقين ومكممة .. لماذا اختارها مراهقة ؟ طبعًا ليكون وزنها خفيفًا ..

لقد اختطفها (سليمان) وحملها حملاً إلى الحديقة ، ويبدو أنه كان ينوى النزول بها إلى البئر فالمقبرة .. لا بد أن (أفسيس) قد اشتاق دماء العذارى بعد كل هذه الأعوام .. بالطبع لم يكن (سليمان) راغبًا فى خطف فتاة تحطم سلسلة ظهره أو تسبب موته بالذبحة الصدرية ..

قلت وأنا أقف فوق مشهد المصارعة المحبب هذا :

ـ « اسمع يا (سليمان) .. أنت تعرف أننى أحبك .. لا ترغمنا على إيذائك .. فلندخل إلى الفيلا ونتكلم رجلاً لرجل .. »

قاوم للحظة ثم هدأ وبدأ يبكى .. يبكى بكاء يمزق نياط القلب كأنه كلب جريح .. لقد فقد السيطرة على عضلاته لذا أخلى (مختار) سبيله ..

أخرجت قداحتى وأحرقت الحبال التى تقيد الفتاة ثم انتزعت الشريط اللاصق عن فمها .. نهضت وهى مذهولة مذعورة لا تصدق ما يحدث .. فقلت لها :

ـ « أنت لا تعرفين أى شيء على الإطلاق عن هذه القصة .. هل تعرفين هذا الفتى ؟ »

نظرت لنا وهزت رأسها فى ذعر ، فقلت :

ـ « يمكنك أن ترحلى فلن يضايقك أحد .. لكن أريد أن تتذكرى أن أية كلمة ستكون خطرًا داهمًا عليك .. هذا الفتى يتصل بالشياطين وهى قادرة على الانتقام منك فى أية لحظة .. أقسم بالله العظيم أننى لا أخدعك ! »

ثم أشرت نحو باب الحديقة وصحت :

ـ « هيا !!! »

لم تكذب خبرًا وانطلقت تركض نحو الباب ، وسرعان ما ابتلعها الظلام .. لا أدرى إن كانت ستتكلم أم لا ، لكن أحسبنى كنت مقنعًا مرعبًا بما يكفى .. إنها طفلة والأطفال لا يتكلمون إذا استبد بهم الخوف .. يجب ألا تتكلم وإلا وقع (مختار) فى مأزق لأنها تعرف عنوانه بالتأكيد ..

سألت (سليمان) الباكى :

ـ « من أين جئت بها ؟ »

قال وهو يتمخط :

ـ « فففففت ! من الشارع الخلفى .. لم يكن هناك أحد فى الشارع ويبدو أنها كانت تزور صديقة لها ، وكنت أحمل فى جيبى الحبل والشريط اللاصق بحثًا عن ضحية .. ضربتها على مؤخرة عنقها حتى فقدت الوعى ثم قيدتها وحملتها إلى هنا .. »

ـ « لقد صرت رشيق الحركة .. تحولت إلى رجل عصابات يجيد اللاتينية فى أسبوع واحد .. لقد جاء دور واحد آخر كى يزور المقبرة ليلة السبت حاملاً التصبيرة لـ (أفسيس) .. »

قال وهو يدارى وجهه فى كمه :

ـ « أنت لا تفهم هول ما رأيت ! يمكنك أن تجلس هنا وتتكلم عن الشجاعة والتماسك وقوة الإرادة ، بينما الوضع تحت .. ليتنى ما نزلت .. ليتنى ما نزلت ! إنهم يستطيعون الحصول على ما يريدون عندما يريدون .. سوف ينتقمون من أسرتى وأولاد أولادى إن لم ألب عهد الدم ! »

والمشكلة هى أننى لم أستطع أن أتهمه بالحمق ...

* * *

ـ ١٢ ـ

أمضينا الليل ساهرين ..

لم يحك لنا (سليمان) أى شىء .. ظل صامتًا .. لم يضف أية تفاصيل إلى ما قاله لنا .. فقط عرفنا أن أسلوب (أورفيوس) هذا فاشل تمامًا .. لقد كانوا بحاجة لخادم جديد وقد وجدوا واحدًا ...

أثار قلقى صمته هذا .. وفيما بعد عرفت أننى كنت محقًا ..

كنا قد رتبنا كل شىء .. أكثر المسئولية يقع على (مختار) .. لم يعد هناك مجال للمزاح .. إن هذه الكائنات قوية جدًا .. أعتقد أن الحل الوحيد هو هدم المقبرة التى تتخذها مسكنًا لها .. هذا لن يقضى عليها لكنه سيبعثر شملها ، ولسوف تضطر إلى العثور على ملجأ آخر ..

قلت لـ (مختار) :

ـ « لدينا خيط مهم .. هو أن (كامل البدراوى) دفن فى ذلك القبر .. سوف نعرف المكان من (سلامة) الطاهى أو من أى واحد يكون قد حضر الجنازة من باب الثواب .. نحن نعرف أن المقبرة مهجورة .. أى أنها لا تستعمل للدفن

وليس هناك من يحتج على هدمها .. آخر من دفن فيها (كامل) ولن يسأل أحد عن رفاته »

ـ « مذكرات (كامل) تؤكد وجود آخرين . »

ـ « أعتقد أنهم لم يدفنوا بشكل رسمى .. ربما دفنهم خدم آخرون .. والآن أنت تزعم أنك صاحب نفوذ .. تريد أن تستعمل نفوذك لهدم هذه المقبرة المهجورة التى لا يعرف أحد من دفن فيها .. تريد تسويتها بالأرض .. »

حك رأسه وغمغم :

ـ « هذا عسير .. »

ـ « هو عسير لكن يجب أن يتم .. »

ثم أضفت فى تحفظ :

ـ « الحل الثانى هو عمل هذا بشكل غير قانونى .. أى أن ترسل من يتسللون لهدم المقبرة فى ظلام الليل .. أرجو أن نستنفد الحلول القانونية أولاً .. أنا أعرف أنك قادر على ذلك يا (مختار) .. فأنت محام وتعرف الدهاليز القانونية ، كما أنك خبرت الحياة جيدًا .. »

نظر لى (سليمان) بعينيه القلقتين وتساءل :

ـ « هل هدم بيت الكائنات يحمينى منها ؟ أم أن هذا سيشعل جنونها ؟ »

قلت فى صبر :

ـ « لا أضمن شيئًا يا بنى .. فقط لا أرى حلاً آخر .. »

كانت هذه هى الإجابة الخطأ .. لقد أطرق برأسه وحسبته يستشعر القلق ، لكنه فى الحقيقة كان يستشعر اليأس .. فاتنى أن ألمح ذلك التعبير على وجهه .. تعبير الفأر فى مصيدة .. تعبير المحكوم عليه الواقف أمام جدار بينما دقات الطبول تدنو من نهايتها ..

ساد الصمت ..

بعد قليل أعلن (مختار) أنه سيفعل ما بوسعه ليجد المقبرة .. وما بوسعه كى يهدمها .. وهكذا افترقنا ..

قلت لـ (سليمان) قبل أن أتركه :

ـ « أنت عبقرى وقوى الإرادة .. أعرف أنك ستنتصر .. لن تسمح لهذه الكائنات بأن تلوث روحك .. عد لدارك وفكر فى كلماتى .. أعدك أنها لن تكون موجودة ليلة السبت القادمة .. أتحدث عن الكائنات لا عن كلماتى طبعًا »

وقتها لم أكن أعرف أن (سليمان) قرر أن هذا هو السبت الأخير له ، ولم يكن يصغى لحرف مما قلت ..

لقد عاد ذلك الفتى اليائس القديم الذى ابتلع أقراص علاج السكر فى الكافتيريا .. عاد ليظهر فى الصورة .. عاد بقوة .. كان علىّ أن أستنتج هذا وأن أمضى كل دقيقة مع (سليمان). لقد تصرفت بحماقة كالعادة وافترضت أنه سينتصر لمجرد أنه شديد الذكاء .. من جديد أكتشف أن العبقرية لا تدل على الاستقرار النفسى .. على الأرجح تدل على العكس ..

أعتقد أن الباب السحرى الذى يقوده إلى الفرار لم ينغلق قط .. نحن حسبناه انغلق ، لكنه ظل مواربًا ينتظر الفرصة ..

وقد وجدها ....

★ ★ ★

ـ « هذا الفتى يتحرك من منطلق حماس الشباب ، مع الكثير من الرغبة فى الاستشهاد ..إنه ليس مسئولاً عن أقواله »

★ ★ ★

كنت جالسًا مع (مختار) فى ذلك اليوم نتساءل عن سبب اختفاء (سليمان) .. لماذا لم يعد ليقابلنا .. الحق أننى لم أعد أثق به ولم أعد مرتاحًا لإطلاعه على خططنا .. لقد صار خادمهم وأعطاهم عهده .. ولعل الذعر أقوى تأثيرًا فى النفس من دواعى الصداقة .. لكنى قدرت أنه سيعود كما كان إذا زالت الكائنات ....

على الأقل نعرف أنه لم يعد للمقبرة .. المقبرة التى لم يعد لها مدخل إلا من الحديقة .. وهذا سوف يطلق عدة أجراس ..

فجأة صرخ (مختار) وهو ينظر من النافذة :

ـ « ما هذا ؟ »

نهضت لأنظر معه فرأيت منظرًا عجيبًا ..

كان هناك دخان أخضر عجيب يخرج من الحديقة .. بالتحديد فى النقطة ٣٣ .. دخان له شكل متغير غير مستقر .. تارة هو دخان ، وتارة تخدعك عينك فتحسبها أجسادًا تصطرع .. ثم تتبدل الرؤى فترى دوامة متسارعة .. وفجأة بدأ جرس الإنذار يدق .. يدق بلا انقطاع ..

وفجأة سمعنا الدفقات .. رأينا مياه حمام السباحة تغور ثم ترتفع .. تغور ثم ترتفع .. وبدا كأن للمـاء مخالب تمتد ثلاثة أمتار فى الهواء ثم تعود لتسكن .. ثم تتخذ شكل الدخان أو البركان .. ومن جديد ينبعث الدخان الأخضر من سطح المياه .. إنه ينتشر كالوباء فوق عشب الحديقة ..

الأرض ترتج تحت أقدامنا فى ضربات متوالية .. ضربة .. ضربة .. ضربة ..

هتف (مختار) من جديد :

ـ « ماذا يحدث ؟ »

قلت وأنا أتماسك :

ـ « إنهم يغادرون .. لقد تم الأمر ! »

قال هامسًا :

ـ « نعم .. لا بد أن المقبرة تُهدم فى هذه اللحظة بالذات ! إنهم يخرجون من المنافذ الأخرى .. »

ووقفنا محاولين التماسك .. إما أن ينتهى كل شىء بالنسبة لهم أو ينتهى بالنسبة لنا ..

رائحة الكبريت هذه .. رائحة الكبريت !

البيت الذى ظلت فيه تلك الكائنات نحو مائة عام قد سوى بالأرض .. لا بد أن (بلدوزر) ثقيلاً يتوغل الآن فى تلك البقعة الرهيبة .. لا بد أن عشرة عمال يحفرون بمعاولهم هناك .. لا بد أن أكياس الخرسانة تصب الآن ..

همس (مختار) من بين شفتيه وهو يراقب الدخان الذى يتخذ شكل وحوش متصارعة أو شكل غيلان أو شكل غابة خضراء أو شكل .. شكل دخان :

ـ « برغم هذا سوف أتخلص من هذه الفيلا .. »

ـ « نصحتك كثيرًا أن تفعل .. »

ـ « أنا خائف .. »

ـ « لن تخاف أبدًا كما أخاف أنا .. اتلُ آية الكرسى وفكر فى (رانية) والآخرين .. »

ومرت دقائق من التوتر .. كان شعور التقزز الذى انتابنى بلا سبب يتلاشى تدريجيًا ...

بعدها همست وأنا خائر القوى :

ـ « أعتقد أن الأمور تهدأ .. إنهم قد رحلوا فعلاً .. »

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « إلى حيث تذهب الشياطين التى أزيل مسكنها من على وجه البسيطة .. »

★ ★ ★

سوف يصل عمال نقل الأثاث صباحًا ..

فى ليلة المغادرة أصرت (رانية) على أن تمضى ليلتها الأخيرة فى الفيلا .. كانت تريد أن تودع عهد الرعب .. وكان (مختار) قد أرغمنى على المبيت فى الفيلا معهم لأنه يخشى أن يحدث شىء هذه الليلة بالذات ..

لم أعرف أنها فى الواحدة صباحًا - وقد نام الجميع - قامت بأغرب شىء يمكن تخيله بعد هذه الأحداث .. لقد جلبت المرآة والشمعة وانتظرت حتى أظلمت الأنوار ، ثم نزلت لأسفل الدرج ومن جديد جربت لعبة (مارى الدموية) التى تريها وجه عريس المستقبل ..

كانت تريد أن تتأكد من أن الوجه الذى رأته فى المرآة قد اختفى حقًا ..

فى الثانية صباحًا دقت باب غرفتى فنهضت لأفتح ..

وجدتها تلبس قميص النوم وتمسك بالشمعة والمرآة .. رسالة واضحة عما كانت تقوم به .. صحت فى جزع :

ـ « أنت مخبولة فعلاً .. لو أن الغيبوبة عاودتك بسبب هذا الضغط النفسى المتعمد على عقلك .. ماذا تحاولين إثباته ؟ »

لم ترمش عيناها وإنما قالت كأنها منومة مغناطيسيًا :

ـ « لم يكن الوجه الذى رأيته وجه شبح .. كان بالفعل وجه عريس المستقبل ! إنه وجه (سليمان) ! »

وارتجفت ..

لهذا بدا لى الوجه مألوفًا فى تلك الليلة .. هات وجه (سليمان) وانزع عنه العوينات وأغمض إحدى عينيه .. ثم اجعله ينتفخ بالعفن ..

هذا هو الوجه الذى رأيته أنا نفسى ..

لم يكن وجه (كامل) .. بل وجه (سليمان) ! عريس المستقبل كما قالت ..

أعتقد أننى أعرف مكان (سليمان) الآن ..

عرفت هذا ساعتها ثم قرأت الصحف بعد يومين .. وجه الغريق الذى نشروا صورته كان ذات الوجه الذى رأيته فى المرآة .. ظاهرة التصبن تحدث فى بشرة الجثة أشياء مماثلة ..

لماذا فعلها ؟ لماذا اختار هذه الطريقة بالذات هو الذى كان لا يفهم كيف ينتحر إنسان غرقًا ...؟

ثم ما معنى هذا كله ؟

لماذا قدم لى الوجه فى المرآة حل لغز الأرقام ؟ هل كان هذا وجه سليمان بعدما عرف السر ؟ سليمان وقتها لم يكن يعرف أى شىء عن القصة ، ولم يكن قد قابل الأسرة ..

هل قدمت لنا المرآة وجهًا آتيًا من المستقبل يخبرنا بما عرفه فيما بعد ؟ أم كان (سليمان) شبحًا منذ البداية ؟ هل وجد حقًا ؟ أم هو مجرد هذيان ؟

لن أعرف الإجابة أبدًا ..

إننى أشعر بإرهاق ، وقد اختلطت الأمور فى ذهنى ..

سوف أحتاج إلى وقت طويل حتى أشفى من جراح فقدى لهذا الشاب ..

سوف أحتاج لوقت طويل كى أنام من دون كوابيس أرى فيها (أفسيس) وقد قرر أن يلاحقنى ..

سوف أحتاج لوقت طويل حتى أتعلم أن أمر أمام هذه الفيلا التى لم تجد مشتريًا بعد من دون أن أرتجف ..

سوف أحتاج لوقت طويل حتى أنسى ...

لكن (سالم) و(سلمى) كانا يحملان لى قصة رهيبة أخرى .. يحكيان لى عن أرض الظلام التى وجدا نفسيهما فيها ..

لكن هذه قصة أخرى.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

تمت بحمد الله

المصادر :

- أحمد الشنتناوى : فنون السحر . اقرأ . ١٧٤ . دار المعارف بمصر . ١٩٥٧
- د. عبد الرحمن نور الدين : العلم والسحر . دار الهلال . ١٩٩٠
- د. جمال عبد الناصر : أقنعة الرعب . المكتبة الثقافية . ٤٦٦ . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٩١
- عدد من مواقع الإنترنت .

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة بيت الأشباح

ما رأيكم في قصة جديدة ؟

لن تكون قصة عن كتاب منسي يحاول بعض العلماء جمعه ، ولا عن قرية أمريكية يتحول أهلها إلى حشرات ، ولا عن أشياء تتحرك أو أشخاص يقدرون على ذلك .. لن أتحدث عن رقم مشئوم ولا ملك ذباب ولا مومياء لها حارس عصبي المزاج .. اليوم أتحدث عن موضوع مبتكر تمامًا لم يسبقني أحد في الكلام عنه .. أتحدث عن

بيت أشباح !



العدد القادم
أسطورة أرض الظلام

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن في مصر ٤٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم